ألوان من الفتوة

صلاح الدين الأيوبي

بقلم

أحمد عبد الجواد الدومي

موسسة الخانجي بمصر
المكتب التجاري ببيروت
مكتبة المثنى ببغداد

صلاح الدين يوسف بن أيوب

الإهداء

إلى كل عربي حر

وإلى كل مسلم غيور

وإلى كل شاب ناهض

وإلى كل مؤمن بالمثل العليا

وإلى كل زعيم صادق ... كافح ليثبت زعامته وصدقه

وإلى أبناء الجمهورية العربية الفتية

أقدم الفتى : صلاح الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

ولله الحمد والفضل والمنة

هذا هو اللون الأول من ألوان الفتوة فى الأمة العربية ، أقدمه فى شموخ واعتزاز ، وثقة واطمئنان . وكان الواجب أن نبدأ بسيد الفتيان « على بن أبي طالب » لأكثر من سبب .

ولكن : حولنا على أن نبدأ بصلاح الدين مانحن فيه اليوم من أبجاد وأفراح ، ومن تحقيق لانتصارات تلو انتصارات ! .

فانتصارات اليوم هى الانتصارات التى جاهد من أجلها صلاح الدين والوحدة التى تحققت الآن هى التى كافح فى سبيلها صلاح الدين .

فنحن نعيش حقاً فى تاريخ حافل ماجد ، وفى أيام مشرقة عظيمة ، قد نسج خيوطها ، وشق طرقها ، وأسّس دعائمها آباؤنا الأولون ، وأجدادنا السالفون ، بزعامة صلاح الدين فى القرن السادس الهجرى .

ذلك ما حفزنا إلى أن نكتب عن صلاح الدين .

والحق أن القلوب ماأحست بهجة مثل هذه البهجة الصادقة ، والفرحة

الناطقة . ولئن كان صلاح الدين حياً وعظيما دائماً ، فهو فى هذه الأيام أكثر حياة ، وأشد حباً فى القلوب .

وسنكتب قريبا إن شاء الله عن « سيد الفتيان » . فما أحوجنا شبابا وشيوخا إلى أن نتذاكر ونتدارس تاريخ أمجادنا الأولى ، وتواريخنا السوالف .

إن الأمة العربية تجتاز الآن أخطر مرحلة من مراحلها، والقلوب الفتية تعيش اليوم فى ثورة عارمة ملتهبة ، عاشت هذه الثورة داخل النفس حينا من الزمن ، ثم جاءت اللحظة الحاسمة ، فبرزت الثورة إلى معترك الحياة ، لتثبت وجودها فوق الأرض ، ولتزلزل بقوتها أجواز الفضاء .

وأستطيع أن أؤكد الآن وأنا واثق مطمئن ، أن الاستعمار وأعوان الاستعمار لن يجدوا راحة بعد اليوم فى الوطن العربى ، فإن عزمة الثائرين وثورة العازمين هذه المرة، فوق حديد المستعمر وناره ، وفوق الإغراء بذهبه ودولاره .

لقد أفقنا من هذا النوم الطويل ! إن الدم الإسلامى ، وإن الشرف العربى ، وإن أرواح الشهداء ، وإن الأمجاد الأولى التى حولت مجرى التاريخ ، تنادى كل عربى ، أن يفتك بحواجز الاستعمار وسدوده ، وأن يطيح بالأسلاك التى صنعها الاستعمار صنعا ، وفرضها علينا فرضا .

وإلا ، فماذا يكون الجواب لو تساءلنا : أى حواجز تفصل مصر والأردن وسوريا عن حدود فلسطين ! أليس من العار أن يكون الجواب قطعا من الخشب ، ولفافات من الأسلاك ، وضعها الاستعمار لتحجز بيننا وبين أرضنا الحبيبة المغصوبة « فلسطين » ؟

إن الأمة العربية لن تهدأ ثائرتها ، ولن تلين شوكتها، حتى تزول هذه الأسلاك المفروضة ، والحواجز الموضوعة . بل حتى ينقشع عنا ذلكم الكابوس اليهودى المخيم على هذا الجزء العربى الخالص من وطننا العربى الخالد .

إننا ننتظر فى القريب العاجل وحدة كبرى شاملة ، فهذه الأسلاك وهذه الحواجز معدودة الأيام ، لأن عين الله لا تنام ، ولأن النهضة العربية غزت كل عربى فى الجزيرة العربية ، وفى الأردن ، وفى لبنان وفى العراق ، وفى المغرب العربى ، وفى مصر والسودان .

وتاريخ أمتنا العربية تاريخ شعت فيه الحياة القوية ، فكان تاريخا نابضا دائما ، قويا أبدا .

ولقد انتصرت فى هذا التاريخ كلمة الله على كلمة الكفر، وكلمة العدالة على كلمة الظلم ، وكلمة السماء على كلمة الأرض .

والحقيقة الواضحة الساطعة أن رسول الإنسانية والسلام محمد بن عبد الله ، استطاع أن يوجد هذا التاريخ المشرق الوضاء ، حين استطاع أن يخلق من أصحابه رجالا حولوا العقائد إلى شرائع وأعمال ، وحولوا القرآن إلى نغمات مجلجلة ، وحركات مزلزلة ، وحولوا كلمة التوحيد

إلى منطق جبار يدوّى فى الآفاق ، ويسرى فى العالمين .

لقد اهتم الرسول العظيم أول ما اهتم بأن يجعل المبادىء تنطلق تعيش سلوكا بين الناس ، ويجعل القوانين تتحرك لتتولى بلغتها مخاطبة الشعوب ، ويجعل من الفكرة المجردة أمة قوية لا تعيش على الخيال والفلسفة ، إنما تحيا على البطولة والكفاح ، والتضحية والجهاد .

ولقد تخرج من هذه المدرسة الإسلامية ، ومن هذه « الجامعة العربية » المحمدية ، رجال ورجال ، و « فتوات » أشبال ، وعظماء خالدون . يقول قائلهم : « يعجبنى الرجل إذا سيم خطة ضيم أن يقول « لا » بمل‌ء فيه » ، ويلقن تعاليمه القوية فى حزم وصرامة : « علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا ، وروّوهم ما يجمل من الشعر »(١)

وكان الشاعر العربى يفيض فى شعره قوة وحماسة ، وصلابة وشدة :

قد عشت فى الناس أطوارا على طرق
شتى وقاسيت فيها اللين والفظظا
كشلاً بلوت فلا النعماء تبطرنى ولا تخشّعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الهول صدرى قبل موقعه ولا أضيق به ذرعا إذا وقعا

* * *

وكنت إذا قوم رموني رميتهم فهل أنا فى ذا يا لهمدان ظالم

(١) من الكلمات المأثورة عن عمر بن الخطاب .

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

* * *

يا أيها السيف المجرد بالفلا يكسو السيوف على الزمان مضاء
تلك الصحارى غمد كل مهند أبلى فأحسن فى العدو بلاء
خيرت فاخترت المبيت على الطوى لم تبن جاها أو تنل ثراء
إن البطولة أن تموت من الظما ليس البطولة أن تعب" الماء

* * *

أقول لها وقد طارت شعاعا من الموت ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الأرض داعى

ونحن فى حاجة ماسة لأن نفقه معنى الرجولة أو معنى الفتوة من جديد

* * *

فكلمة الفتوة من الكلمات التى ضعفت ، أو ضعف معناها الأصيل ، حين ذابت عناصر القوة ، وضاعت هيبتها فى الأمة العربية تحت ضغط الاستعمار ، وأعوان الاستعمار .

فأما الآن وقد عادت إلى الأمة العربية يقظتها ، وأما الآن وقد رفعنا رءوسنا ، وأثبتنا وجودنا ، فقد آن لنا أن نعرف الفتوة وألوانها ، وأن نعرف أمجادنا وخلودها ، وأن نعرف ديننا وعظمته ، وأن نعرف عروبتنا وأصالتها .

آن لنا أن نعرف ذلك كله ، لننسج منه خيوط القوة ، ونشيد عليه صروح البطولة الرائعة .

وقد رأيت أن ألقى ضوءا خفيفا على كلمة « الفتوة » قبل أن أتكلم عن صلاح الدين .

والله أسأل أن يجعل الحديث عن « صلاح الدين » فاتحة خير للألوان الفتية ، والنهضة العربية الشاملة .. وأن ينفع به الأجيال الحاضرة ، والأجيال اللاحقة ، فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة — احمد عبد الجواد الدومى

الفتوة

قال الأستاذ أحمد أمين رحمه الله :

« لكل كلمة تاريخ يشبه تاريخ البلاد ، وتاريخ النظم السياسية ، بل وتاريخ الأشخاص .

الفتوة فى الأصل معناها الشباب . قالوا : فَتِىَ يَفْتَى ، أى صار شاباً ، وقالوا : هو فتىُّ السن ، أى بين الفَتَاء . وقد وُلد له فى فتاء سنه أولاد ، أى فى شبابه . وأصل كلمة فتى مصدر فَتِىَ ، كفرح مرحاً ، ثم جعلت وصفا فقالوا : هو فتى أى شاب . وجمعوا الفتى على فتيان وفتية . والاسم من ذلك كله هو الفتوة .

قال ابن قتيبة : « ليس الفتى بمعنى الشباب والحدث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال » ، يدل على ذلك قول الشاعر :

إن الفتى حِمَّالُ كل ملمّةٍ ليس الفتى بمنعّم الشُبّان

* * *

وكأنهم لما لاحظوا فى الفتوة الشباب والقوة ، لاحظوا أن القوة أكثر ما تستمد فى وسطهم من الكرم والحرية .

ويظهر أن الكلمة أصبحت فى هذا الطور خاضعة للبيئات المختلفة فتلبسها كل بيئة ما تراه المثل الأعلى للفتى . فطرفة مثلا يرسم لنا صورة الفتى كما يتصورها هو وبيئته فيقول :

إذا القوم قالوا مَنْ فتىً خلت أننى
عُنيت فلم أكسل ولم أتبلّد

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت ... وقد خبَّ آل الأمعز المتوقد
فذالت كما ذالت وليدة مجلس ... ترى ربها أذيال سحل ممدد
ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى ... وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى ... إلى ذروة البيت الشريف المصمد

. . .

فطرفة يعد نفسه مثلا أعلى للفتوة ، لاتصافه بأوصاف لا بد منها لمن نصب نفسه ليكون فتى . وهى أنه أولا : إذا ما سأل القوم عن فتى ينجدهم فى الملمات لم يجد الفتوة متوافرة فى أحد توافرها فيه ، لأنه سرعان ما يهوى إلى ناقته يضربها بالسياط ، لتسرع فى السير للإنجاد . وثانيا أنه لايلجأ إلى القلاع مخافة حلول الأضياف ، وهو واسع الرحب فى قرى الضيوف كما هو سريع النجدة فى قتال الأعداء ، وهو إلى ذلك يدلى برأيه بين عظماء القوم عندما يحمد الجد لأنه شريف النسب على الحسب .

وزهير لما كان عاقلا فصيحاً رزيناً جعل أهم صفات الفتى ،

الفصاحة فى اللسان ، والحكمة فى الجنان ، فقال :

لسان الفتى نصفٌ ، ونصفٌ فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

. . .

ومن ذلك نرى أن مكيناً الدارمى رسم الفتى رسما آخر فجعل من أهم ميزات الفتى حفظ السر إذ يقول :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم ... على سر بعض غير أنى جماعها
لكل امرىء شِعب من القلب فارغ
وموضع نجوى لا يرام اطلاعها
يظلون شتى فى البلاد وسرهم ... إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

. . .

ويمكننا أن نستخلص من ذلك أن الفتوة شباب وسلوك حميد .

ومن خير ما قيل فى وصف الفتيان قول كعب بن زهير :

لعمرك ما خشيت على أبىٍّ ... مصارع بين قومٍ فالسلى
ولكنى خشيت على أبى ... جريرة رمى فى كل حى
من الفتيان محلوٌ ثمر ... وأثمار بإرشاد وغى
ألا لله الأرامل واليتامى ... ولله الباكيات على أبى

. . .

يقول : ما خشيت على هذا الرجل أن يموت بين هذين الموضعين ،

أى يموت حتف أنفه ، وإنما أخشى عليه جرائره وطعنه فى الأحياء ، ومحل الشاهد أنه وصفه بأنه فتى يتناهى فى الحلاوة إن استدعت الظروف ويتناهى فى المرارة إن استدعت الظروف . .

وقد التفت أبو الريحان البيرونى فى كتابه «الجماهر فى معرفة الجواهر» لفتة لطيفة ودقيقة فقال :

« إن هناك فرقا بين الفتوة والمروءة ، فالمروءة تقتصر على الرجل فى نفسه وذويه وماله ، والفتوة تتعداه إلى غيره . والمرء لا يملك إلا نفسه فإذا احتمل مغارم الناس وتحمل المشاق فى إراحتهم ، ولم يضن بما أحل الله له ، فهو الفتى الذى اشتهر بالقدرة عليها . ولذلك عرف الفتوة بأنها بشر مقبول ، ونائل مبذول ، وعفاف معروف ، وأذى مكفوف » . فالبيرونى كالذى قبله لا يهتم بغنى أو فقر فى تعريف الفتى ، وإنما يجعل عنصره شيئا واحداً وهو الإيثار .

يقول الشاعر :

وليس فتى الفتيان من راح واغتدى
لشرب صبوح أو لشرب غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى
لضر عدو أو لنفع صديق

ويقول آخر :

أقسّم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

. . .

فإذا نحن خطونا خطوة فى التاريخ وقاربنا الاسلام ، وجدنا نوعاً من الفتوة فى التاريخ ، وذلك ما عرف فى التاريخ وفى كتب السيرة « بحلف الفضول » . فقد جاء فى الروض الأنف للسهيلى أنه « حلف عقدته قريش بينها على نصرة كل مظلوم بمكة »

وقد قال ابن قتيبة « إنه قد سبق قريشا إلى مثل هذا الحلف جرهم فى الزمن الأول ، فتحالف منهم ثلاثة ، أحدهم الفضل بن فضالة ، والثانى الفضل بن وداعة ، والثالث فضيل بن الحارث . ومن أجل تسميتهم كلهم بالفضل والفضيل سمى حلف الفضول »

وسمى الحلف الثانى بهذا الاسم أيضا . وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصى ابن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدى عبد الدار ومخزوماً وغيرهما ، فأبوا أن يعينوه وزجروه ، فلما رأى الزبيدى الشر أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة وصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

. . .

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك . فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبدالله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا

فى ذى القعدة فى شهر حرام قياماً ، وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ، « ما بل بحر صوفة ، ومارسا حراء وثبير فى مكانهما . وعلى التأسى فى المعاش » .

وسمت قريش ذلك حلف الفضول ، ثم مشوا إلى العاصى بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى ، فدفعوها إليه وقال الزبير بن عبد المطلب :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

. . .

وذكروا أن رجلا من خثعم قدم مكة معتمراً ومعه بنت له يقال لها القتول ، من أوضأ نساء العالمين ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنده ، فقال الخثعمى : من يعدينى من هذا الرجل ؟ فقيل له : عليك بحلف الفضول ! فوقف عند الكعبة ونادى ، فإذا هم يسرعون إليه من كل جانب وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث فما بالك ؟ فقال : إن نبيها ظلمنى فى ابنتى وانتزعها منى قسوة ، فساروا معه حتى وقفوا على باب الدار ، فخرج إليهم ، فقالوا له : أخرج الجارية ويحك فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه . فقال : أفعل ، ولكن متعونى بها الليلة ! فقالوا : لا والله ، فأخرجها إليهم . وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه فى الاسلام لأجبت » .

فأعتقد أنه لولا نظام الفتوة ما كان حلف الفضول . وهو مبدأ فى

غاية السمو ، إذ يقضى بتحقيق العدالة ، والأخذ من الظالم للمظلوم ، مهما كان الظالم قوياً عزيز الجانب ، كما فعلوا مع العاصى ومع نبيه .

. . .

فلما جاء الإسلام وجدنا القرآن يستعمل فتى وصفاً لإبراهيم عليه السلام فيقول ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، ورأيناه يستعمله وصفاً لأهل الكهف فيقول : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ... إذ أوى الفتية إلى الكهف » ، وقد فسر فى الموضعين بالشباب .

وجاء الإسلام باستعمال خاص لكلمة فتى ، ذلك أن الإسلام لم يرض أن يسمى الرقيق المملوك عبد فلان وأمة فلان ، وكره أن تضاف العبودية لغير الله ، فاختار لها اسماً محبوباً وهو الفتى والفتاة . وجاء فى الحديث « لا يقولن أحدكم : عبدى وأمتى ، ولكن ليقل : فتاى وفتاتى » . وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى « وإذ قال موسى لفتاه » . وبذلك اختار الإسلام خير الألفاظ الدالة على الحرية فدل بها على الرق طالبا لحسن معاملة الرقيق .

وظلت الكلمة تستعمل فى معناها الأول وهو الشجاعة والفروسية فقالوا : لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا على ، إذ كان على كما هو معروف : فارسا شجاعاً . ولما مات مخلد بن المهلب وهو ابن سبع وعشرين سنة وكان شهما نبيلا صلى عليه عمر بن عبد العزيز ثم قال : « اليوم مات فتى العرب » . وقال يزيد بن المفرغ :

فالهول يركبه الفتى حذر السآمة والمخازى

* * *

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى العصر العباسى وجدنا كلمة الفتوة استعملت فى أربعة معان :

(١) كانت تستعمل للدلالة على المروءة من نبل وكرم وشهم وعدم تكلف ، من ذلك ما جاء فى كتاب أدب النديم ، أن رجلا من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر دعاه للطعام عنده دعوة احتفل لها ، فلما حضر محمد طالبه بالطعام فماطله ليتكامل ويتلاحق ما أحبه من الكثرة حتى تصرم أكثر النهار ، ومس محمدا الجوع ، فتنغص عليه يومه ، وأراد محمد السفر ، فشيعه هذا الرجل ، حتى إذا دنا منه ليودعه ؛

قال له : أيأمر الأمير بشىء ؟

قال : نعم . تجعل طريقك فى عودتك على محمد بن الحارث فاسأله أن يعلمك الفتوة ، فمضى حتى دخل إلى محمد فقال له :

— بعثنى إليك الأمير لتعلمنى الفتوة ، فضحك وقال:

— يا غلام ، هات ما حضر .

فأتى بطبق كبير عليه ثلاثة أرغفة من أنظف الخبز وأنقاه ، وسكرجات خل وملح من أجود ما يتخذ من هذه الأصناف . وابتدأ

يأكل ، فجاءته فصيلة باردة من مطبخه وتداركها الطباخ ، فانتظم له أكل خفيف ظريف فى زمن يسير وبغير احتشام وانتظار ، فهو يستعمل الفتوة فى الكرم فى سماحة من غير تكلف » . ومن هذا ما قاله أبو البلهاء فى يزيد بن مزيد الشيبانى يرثيه :

نعم الفتى فجعت به إخوانه ... يوم البقيع حوادث الأيام
سهل الفناء إذا حللت به ... طلق اليدين مؤدّب الخدام
وإذا رأيت صديقه وشقيقه ... لم تدر أيهما ذوو الأرحام

(٢) ونرى الصوفية استحسنت كلمة الفتوة وما تدل عليه من معانى النبل والسماحة ، وأدخلتها فى معجم كلماتها ، وغذّتها من فضائلها . وأول مانجد ذلك فى الرسالة القشيرية ، فقد عقد القشيرى باباً سماه (باب الفتوة) بجانب باب الحياء والصدق وقال فى تعريفها : « أصل الفتوة أن يكون العبد ساعيا أبدا فى أمر غيره » . ونقل عن الفضيل أنه قال : « الفتوة الصفح عن عثرات الاخوان » . وقال بعضهم « الفتوة : أن لا ترى لنفسك فضلا على غيرك » . .

وهكذا أحيا الصوفية كلمة فتوة .. وعقد الشيخ محيى الدين بن العربى فصلا طويلا فى الفتوة فى كتابه « الفتوحات المكية » عنوانه « معرفة مقام الفتوة وأسراره » قدمه كعادته بأبيات من الشعر فيها :

إن الفتوة ما ينفك صاحبها ... مقدّما عند رب الناس والناس
إن الفتى من له الإيثار تحلية ... فحيث كان محمول على الراس
ما إن تزلزله الأهوا بقوتها ... لكونه ثابتا كالراسى فى الراس

(٣) والبعض الآخر يطلق الكلمة على نوع من النـــاس هم الشبان الأشداء .

(٤) ثم كان هناك نوع رابع تستعمل فيـــه الكلمة هو نوع من الفروسية المنظمة ، فقد اشتهرت ألعاب الفروسية فى العصر العباسى ، وكثر اللعب بالبندق والخروج به لرمى الصيد . فقد ذكر الأغانى فى سبب موت الشاعر أبى العبر أنه خرج إلى الكوفة ليرمى بالبندق مع الرماة من أهلها ، فسمعه بعضهم يقول قولا سيئا فى على فقتله .

* * *

على كل حال فى العصر العباسى وبعده نمت الفتوة بمعانيها المختلفة ، وأهمها نوعان :

(١) فتوة نسميها فتوة مدنيـة (٢) وفتوة دينية أو صوفية :

ويظهر أن النوعين كانا متميزين فى نظمهما وتقاليدهما .

فالفتوة المدنية وليدة الفروسية والشجاعة ، ومن قديم عرف العرب بهما ، وقالوا فى ذلك الأشعار الكثيرة من أمثال معلقة عمرو بن كلثوم

وعنترة بن شداد ، وخلفوا لنا أدبا وافراً فى كل ماينطبق على الفروسية والشجاعة ، وعنى المؤلفون بعد فى جمعهما وتصنيفهما ، ككتاب حلية الفرسان ، وشعار الشجعان لابن هزبل الأندلسى ، وقد ذكر فيه الخيل والسيوف والرماح والقس والنبل والدروع والترس وما إلى ذلك ، وما قيل فيها من أشعار . .

وجا فى كشف الظنون أن الاحتفال بدخول الشباب فى سلك الفتيان على عهد الناصر لدين الله كان مصحوبا بشرب كأس الفتوة ، كما أخذ الناصر جنده بالتدريب المتواصل على فنون الرياضة البدنية المختلفة وقال ابن تغرا بردى فى تاريخه إن الناصر لدين الله أرسل رسلا إلى نور الدين وإلى الملك العادل شقيق صلاح الدين ، وإلى ابنه الملك الصالح ، وإلى الملك شهاب الدين حاكم غزة ، ومعهم كأس الفتوة وسراويلها ، لكى ينتظموا فى سلك فتيانه .

وكأس الفتوة هذه ليست نبيذا ولا خمراً ، وإنما هى ماء وملح ،

ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا لسمينا نظام فرق الكشافة بنظام الفتوة ، لأنها به أليق ، والاسم أجل .

وهؤلاء الفتوات كان لهم أثر كبير فى إقلاق راحة الفرنسيين ، أو الحملة الفرنسية على مصر ، فإنهم استطاعوا أن يقضوا مضاجعهم ، ويقلقوا

راحتهم ، ويفسدوا حكمهم ، وقد جاء فى الجبرتى ما يثبت ذلك . (١)

* * *

هذه هى الفتوة التى نريدها : شهامة وبطولة ، وسخاء ورجولة ، وعمق وقوة ، وفدائية وإخلاص .

لقد شوه الاستعمار — فيما شوه — جلال هذه الكلمة وروعتها ولكننا من الآن نريد أن نعود اليها ، لا على أنها فتوة شارعية سطحية وإنما على أنها فتوة بناءة خلاقة .

إنها رمز من الرموز الخالدة ، لأمتنا القوية السعيدة ، وإننا نفخر ون كل الفخر بأمجادنا وتراثنا ، وحضارتنا ودينا . وكل ما يتصل بعروبتنا . .

لقد أفقدنا المستعمر ثقتنا فى أنفسنا ، وثقتنا فى ماضينا ، أما اليوم فقد رفعنا الغشاوة عن أعيننا ، وقد أبعدنا اليأس عن قلوبنا ، وسنواجه المستقبل إن شاء الله بعقيدة صادقة ، وأمل كبير .

إن مدلول الفتوة فى عصرنا الأخير ، لا يتصل من قريب ولا من بعيد بمدلولها فى العصر الأول ، فهى الآن لا تطلق إلا على

---

(١) راجع كتاب ، الفتوة والصعلكة للدكتور احمد امين فى سلسلة اقرأ بدار المعارف .

طائفة من الناس لا يعرفون ربا ولا دينا ، ولا يسلكون طريقا مستقيما وهذا أبعد ما يكون عن معناها الصحيح الذى وضعت له ، واشتهرت به أيام كان للأمة العربية صولجانها وقوتها ، وبأسها وشدتها . .

والعجيب أن الكلمات تذل مع إذلال الأمم ، كما أنها تعز مع إعزازها والدليل على ذلك أن كلمة « حرامى » الآن تطلق على اللص الدنىء ، وقد كانت فى وقت ما تطلق على نسبة لقبيلة عظيمة تسمى « بنى حرام » ، وكانت هذه الكلمة حينذاك دليل الفخر والمروءة والنجدة والشهامة حتى كان العزيز من العرب يفتخر بأنه « حرامى » أى أنه من بنى حرام ، فماذا ذلت القبيلة ذلت الكلمة تبعا لذلك ، ولعل هذا اطرد اليوم فى كلمة « أمريكانى » و « فرنسى » فقد كانت كلمة أمريكانى إلى وقت قريب معناها : الإنسان المتقدم المتحضر ، فأما اليوم ، فقد أصبح معناها : المستعمر المستغل البشع ، وكانت كلمة « فرنساوى » معناها بعد الثورة الفرنسية المدافع عن الحريات — كما جاء فى مبادئها — أما اليوم ، فمعناها الذليل الخسيس الحقير . وهكذا .

وإذا كان قد مر على العروبة فترة من الركود الثقيل ، والخمول البغيض ، جعل الشعوب العربية تئن من طول الرقاد ، ووطأة الاستعباد فاليوم تفتح أعيننا على فجر جديد ، وعهد سعيد . ليس عهد النهضة المحدودة ولا الفجر الموقوت ، إنما هو عهد النهضة الطويلة العريضة ، وفجر الاشراق والسطوع . فهل يعقل المكابرون ؛ ويرضخ الظالمون ؛ ويتركنا

الاستعماريون . إنهم إن تركونا أراحوا أنفسهم وأراحونا ؛ وإن غامروا ، فالعزم معقود على الدفاع ، مادام فى الجسم عرق ينبض، وقلب تجرى فيه الحياة .

وفرق شاسع بين من يدافع والله معه ، وبين من يحارب بالظلم والعدوان .

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا » . وهو سبحانه الهازم للطغاة البغاه .

وأظننا قد اشتقنا إلى فتانا العربى المسلم . .

فإلى صلاح الدين أيها العربى الكريم

صلاح الدين الأيوبى

تمهيد

كان صلاح الدين فاتحا للبلاد بسيفه ، وفاتحا للقلوب بعدله ، وفاتحا للعقول بعلمه ، وفتى عربيا شهما من مهده إلى لحده .

وبذلك كان صاحب سلطان ، وداعيا من دعاة الإيمان ، وبنّاء مجد وحضارة وعمران .

وهذا كله جعله يمتد فى التاريخ يوما بعد يوم ، وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل .

ورحم الله عبيد بن أسعد إذ يقول :

بيدى فتى لو أن جود يمينه	الغيث لم يك ممسكا عن موضع
فإذا تبسم قال ياجود اندفق	فيضا وياسحب الندى لاتقلعى
وإذ تنمّر قال يا أرض ارجفى	بالصاهلات وياجبال تزعزعى
وإذا علا فى المجد أعلى غاية	قالت له الهمم الجسام ترفعى
كم وقفة لك فى الوغى محمودة	أبدا وكم جود حميد الموقع
والناس بعدك فى المكارم كلها	رجلان : إما سارق أو مدعى

* * *

والحديث عن صلاح الدين فيه دعوة إلى البطولة ، وحث على الكفاح ، وفيه نار ونور . . . نار تحرق ، ونور يضيء ، لأنه كان مشبوب الأوار بالليل والنهار .

والحمد لله ، كل عربى اليوم أعد نفسه للجهاد والكفاح وهيأ مشاعره للتضحية وحمل السلاح فى سبيل حياة عزيزة لاسادة فيها يطغون ، ولاعبيد على أرضها يستذلون .

كل عربى اليوم صحا وتيقظ ، وانتفض وانتبه ، ليلقن الخونة والمتآمرين على الشعوب درسا قاسيا مرا فيه عظة وذكرى . لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

كل عربى اليوم رفع رأسه ولن يخفضها أبدا ، وحرر نفسه ولن يرضى العبودية أبدا . وعرف ربه عادلا حكيما فلن يستكين بعد ذلك ولن يلين ، ولن يرهب فى ذلك بطشا أو وعيدا ، ولن يدخر فى ذلك وسعا ، ولن يقبل خداعا ، ولا تضليلا .

والحق الذى لاشك فيه أن ذلك النبض الحى ، وهذه الوثبة الواثبة وتلكم العزمة الصادقة والنهضة العربية الشاملة ، ما ذلك إلا امتداد لتاريخ صلاح الدين ووصل حاضرنا بالماضى العظيم .

لقد استدار الزمان ، وعاد الكوكب العربى إلى فلكه العظيم واستقرت الهالة النورانية فى دائرتها السماوية ، وآن لهذه الهالة أن ترسل أشعتها من جديد على أبنائها ، كما آن لهؤلاء الأبناء أن يستقبلوا هذه الأشعة بنفوس مشرقة ، وعزمات دونها الطود الراسخ ، والجبال الشوامخ . ولئن كان الجنرال الفرنسى « غورو » قد ركض بقدمه قبر صلاح الدين ~~فى دمشق سابقا~~ .. وقال : لقد عدنا مرة أخرى ياصلاح الدين .. لئن

كان الجنرال الفرنسى فعل ذلك ، فنحن نرد عليه ~~على أمته الفرنسية~~ فى هدوء وقوة :

إن صلاح الدين يمثله اليوم ~~خمسون مليونا من~~ ملايين العرب فى أرض العروبة الخالدة .

إن هذه المنطقة العربية من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ~~بجزيرتها العربية وفلسطينها العربية وشامها المبارك ومصرها الحبيبة~~ ~~طبيعتها~~ ~~فى~~ تنادى بإرادة الله سبحانه لها أن تتوحد ، وتتوحد على أعمق الجذور وأقوى الروابط .

وهل هناك روابط أقوى من روابط الدين والعقيدة ، واللغة والدم ، والبأساء والنعماء .

لقد اتحدت المنطقة بحكم السلاح يوم كان السلاح هو وسيلة التعبير فى الطفولة الأولى للبشرية .

واتحدت المنطقة بيقين النبوات حين بدأت رسالات السماء تنزل إلى الأرض لتهدى الناس .

واتحدت المنطقة بسلطان العقيدة حين اندفعت راية الإسلام تحمل رسالة السماء الجديدة وتؤكد ما سبقها من رسالات ، وتقول كلمة الله الأخيرة فى دعوة عباده إلى الحق .

واتحدت المنطقة بتفاعل عناصر مختلفة فى أمة عربية واحدة .

واتحدت المنطقة باللغة يوم جرت العربية وحدها على كل لسان .
واتحدت المنطقة تحت دافع السلامة المشتركة ، يوم واجهت استعمار أوربا ، يتقدم منها محاولا أن يرفع الصليب ، ليستر مطامعه وراء قناع من المسيحية .

وكان معنى الوحدة قاطعا فى دلالته حين اشتركت المسيحية فى الشرق العربى ، وحين قاومت الصليبيين جنبا إلى جنب مع جحافل الإسلام حتى النصر .

واتحدت المنطقة بالمشاركة فى العذاب يوم حلت عليها غارات الغزو العثمانى وأسدلت من حولها أستار الجهل تعوق تقدمها ، وتمنعها من الوصول إلى عصر النهضة فى نفس الوقت الذى بدأ فيه عصر النهضة فى أوربا .

بل إن المنطقة اتحدت فيما تعرضت له فى كل نواحيها من سيطرة الاستعمار عليها ، ثم كان اتحادها فى الثورة على هذا الاستعمار بكل أشكاله ومقاومته فى تعدد صوره ، (١) .

هذه الاتحادات كلها أكسبت المنطقة عزة ومنعة ، وحصانة وقوة ، وجلالا ومهابة .

* * *

وإذا تكلمنا عن الحروب الصليبية ، فما نقصد إلا الحروب الاستعمارية

---

(١) هذه العبارات الحية من البيان التاريخى الذى ألقاه زعيم العروبة يوم إعلان الوحدة .

الغاشمة التى ارتكبها الغرب باسم الدين . وما أبرأ الدين من السياسة الظالمة والدم المسفوك ، والخراب الطاغية !

إن صلاح الدين كان يحب كل عربى ويحترمه مسيحيا كان أو مسلما وكل الذى كان يريد تطهير أرض العروبة من الغزاة القاهرين والفرنج المحتلين ، وإيجاد جبهة إسلامية متحدة لمقاومة الاستعمار بشتى ألوانه وكافة سبله .

وإذا كانت المسيحية الآن تحيا جنبا إلى جنب مع الإسلام ، لا بغى ولا عدوان ، ولا ظلم ولا قهر ، فقد كانت هكذا أو تزيد فى عهد صلاح الدين .

قال الأستاذ على الجندى :

لم يكن الصليب خصما ولكن ... حاملوه يوم الوغى خصماؤه
شهروا السيف والمسيح برىء ... من سيوف يستلها أولياؤه
فارس الغرب راعه فارس الشر ... ق ، ويدرى فضل الفتى أكفاؤه
أشرف الفاتحين نفسا وسيفا ... من أشادت بفضله أعداؤه

* * *

وقد اهتممنا عند الكلام على صلاح الدين ببيان نواحى الفتوة أو البطولة فيه ، وما يتصل بها من مهارة وحذق ، وشجاعة وحكمة .

فنحن فى حاجة ماسة إلى تعبئة الشعور العام لفتياتنا وتغذيتهم من هذه الزوايا .

وإذا ، فلاينتظر القارىء منى تاريخا مفصلا عن حياة صلاح الدين حسب الترتيب الزمنى . أو التاريخ الأفقى .

نحن نريد تربية جيل ، وتهذيب نشء ، وإيجاد أفهام واعية ، وقلوب مفعمة بحب العدل والمساواة ، مضيئة بنور العقيدة والهداية والعرفان .

ولقد كانت عناصر الفتوة الحقة ، تتلألأ فى صلاح الدين ، ويتلألأ بها صلاح الدين .

وزاد هذا البطل الفاتح نصاعة وجمالا ، أنه كان مصقولا بطابع الإسلام الصحيح ، طائفا حول دائرته ، لايميل عنه يمنة ولا يسرة ، ولايزيغ عن وحده ، قليلا أوكثيرا . ولهذا كان فى خلقا للمعانى ، مقيما لدعائم الإسلام ، بانيا الأمبراطورية العربية على أعظم أساس وأقوى لبنات .

وأى فتوة لاتصل بالعقيدة ، أوبالسماء ، فهى فتوة أرضية ، وبطولة ترابية ، تعلو كالدخان ، وليس لها فى عالم الخلود نصيب .

لقد اتصل صلاح الدين بالسماء ، وجعل العقيدة هى المحور الذى يدور حوله ، وآمن بالله ، فآمنت له القلوب ، واستقرت على عرش حبه أفئدة الملايين ... تعلم من عقيدته أن لايطأطىء رأسه فى هزيمة ولايزهو فى نصر .

وتعلم من عقيدته ، أن العظمة فى البساطة ، فعاش أغلب حياته ، فى زيه البسيط ، ولباسه الخشن ، وغيره ذات الألوان المنسوجة .

ولهذا كان أنشودة كل جيل ، وخير مثل للشباب ، وأعظم قدوة لأى زعيم ، وأحسن أسوة لمن أحب أن يكون فى الخالدين .

وكأن شوقى كان يعنيه إذ يقول :

خيرت فاخترت المبيت على الطوى ... لم تبن جاها أو تسل ثراء
إن البطولة أن تموت من الظما ... ليس البطولة أن تعب" الماء

* * *

لقد قاسى صلاح الدين ما قاسى ، ظمىء وأصحر ، ونام على الطوى وعاش الأيام والليالى بين الوغى .. حتى انتصر .

وسنقفو اليوم أثره ، ونتبع سيره .. فالمعركة التى حارب من أجلها هى معركتنا ، والانتصارات التى وصل إليها هى التى سنصل إليها بعون الله .

يا فتيان العرب :

إن الاتحاد يجعل من الشتات الممزق ، قوة تمتد من المحيط إلى المحيط وتتحكم فى إيجابية هذا العالم ، وتهيمن على أجنحته ، وتجلس على عرشه العظيم .

أضـــواء

كان الشرق ـ قبل عهد صلاح الدين ـ مقسما إلى أمبراطورية عربية ، وإلى امبراطورية بيزنطية .

ولقد قامت هذه الأمبراطورية العربية على أنقاض الأمبراطورية البيزنطية . ذلك حين انتزع العرب المسلمون من البيزنطيين دمشق وفلسطين ، ثم زحفوا بعد ذلك إلى القسطنطينية لينتزعوها كذلك ، ومنذ ذلك الحين والبيزنطيون مع العرب فى حالة حرب باردة حينا ، وساخنة فى أغلب الأحايين !!

وفى عهد الدولة العباسية الأخير استطاع البيزنطيون أن يقفوا على أقدامهم ويرفعوا رءوسهم ، واستطاع أحد ملوكهم أن يطرد العرب من كريت بعد عهد طويل ، وتمكن البيزنطيون ـ فيما بعد ـ من احتلال فلسطين ودمشق مرة ثانية . ولكن الدولة الفاطمية والسلاجقة بذلوا جهدا كبيرا فى استرجاع هذه البلاد العربية من جديد . وكانت موقعة « منازجرد » عام ١٠٧١ م أهم موقعة تاريخية انتصر فيها العرب على هذه الأمبراطورية البيزنطية التى آن لها أن تتداعى ، وحق لها أن تتقلص بعد هذه الهزيمة المنكرة !!

ولكن ، كانت هذه الهزائم كلها سببا قويا لأن تتحالف الأمبراطورية

البيزنطية مع الدول الأفرنجية حين ذلك ، على التآمر ضد العرب وخنقهم وكتم أنفاسهم .

وصفق الأمبراطور البيزنطى لإتمام هذا الحلف تصفيقا حارا ، كما فرح له الأوربيون فرحة عظمى .

فمنذ كثير من السنين كان الفريقان يشتاقان إلى الانقضاض على هذه الأمة العربية الحية النابضة ، وعلى هذا الوطن الغنى الثرى .

وأخذ كل من الأفرنج والبيزنطيين يمنى نفسه بأمانى عذاب ! إن الكتلة العربية المحصورة فى هذه الرقعة من الأرض سيقضون عليها فى القريب العاجل ، وبذلك يخلو الجو لهم ، يمرحون فيه ويلعبون كيفما يشاءون !

والواقع أن حالة الأمبراطورية العربية حينئذ كان لا يبشر بخير كثير ! فهى منقسمة فيما بينها إلى خلافة عباسية شاخت وكبرت ، وكان مقرها بغداد ، وإلى خلافة فاطمية ضعفت وهزلت ، وكان مقرها مصر .

ومع بحثنا التاريخى لهذا الحلف الأوربى البيزنطى لم نجد عواطف لعبت ولا أحلاما داعبت ، أكثر من العواطف والأحلام التى لعبت بهؤلاء القوم فى هذه الأوقات !

لقد هب أشراف الدولتين ورهبانهم على بكرة أبيهم ، وكأن بينهم وبين الشرق العربى ثأرا كامنا ، وحقدا دفينا ! فلما سنحت لهم الفرصة أرادوا الانقضاض ، والنهام الأخضر واليابس .

إن كلمة «العرب» وحدها كانت كفيلة بإثارة الغرب ، وداعيا من أهم دواعى التشنج . فكانوا دائما يدبرون له الشر ، ويتربصون به الدوائر !!

وكم كانت فرحتهم بهذه الحروب ، ليفتحوا بلاد الشرق ويستعبدوها ويجعلوها مناطق نفوذ لهم ، وأسواقا تجارية لبضائعهم ، ولكى ينشئوا مملكة لاتينية ضخمة فى ربوعه !

ولقد نجحت هذه الحملات الأوربية البيزنطية حينا من الدهر . وأصبحت فلسطين ومدن الشام ولبنان مستعمرات أفرنجية ، وعكفت المصانع الأوربية على إنتاج العتاد والذخيرة ، وتمكن السياح الغزاة من معرفة أسرار العرب ، فعرفوا الكثير عن صناعة الحرير ، وعن الزعفران والصباغة ، والمعادن والأحجار الكريمة ، وامتد نطاق التجارة إلى القارة الأوربية كلها .

ولا نبالغ كثيرا إذا قلنا : إن استغلال الغرب للشرق فى هذه الفترة كان له الفضل الأكبر فى دفع الغرب إلى عالم متحضر ، اجتماعيا وصناعيا

ولقد ساعد الحظ الغرب ، فوهنت الدولة البيزنطية . وبذلك مكن الغرب أنيابه وأقدامه ، وسيطر على موارد الشرق واغتصب حقوقهم .

ولكن الأقدار السعيدة ساقت إلى الشرق كله ، وإلى أرض العروبة وليدا كبر وشب ، فحول مجرى التاريخ ، وأرجع الغرب إلى بلاده ، واستل الشرق من يده بقوة السلاح ، وقوة الإرادة ، وقوة الشعوب ، وإعانة الله .. هذا الوليد البطل هو صلاح الدين .

بطولة مبكرة

فتح صلاح الدين عينيه على قلعتين ذاتى أسوار هما « تكريت » ثم « بعلبك » ، وعاش فى الثانية مدة الطفولة إلى سبع سنوات ، وكأن هذه الأسوار جعلته يفكر : لماذا أنشئت ؟ ولماذا كانت بهذه المتانة والقوة ؟ وبقيت هذه الأسئلة غامضة فى ذهن الوليد . ولكن نشأته بين الحوادث الدمشقية ومشاهدته لها ، وقربه جدا منها بعد أن ترك أبوه نجم الدين بعلبك ، وعاش قريبا من نور الدين فى دمشق ، أزاحت الستار عن غموض هذه الأسئلة . فلقد عرف أن الأسوار تقام من أجل الحروب ، وتستخدم فيها ، ذلك لأن الجواب كان عمليات حربية على نطاق واسع . وهو دفاع نور الدين عن الامبراطورية العربية واستماتته فى سبيل ذلك أمام غارات القوات الأفرنجية الاستعمارية عام ١١٥٤ م

وبذلك شاهدت عين صلاح الدين أسلوبين من أساليب الحرب : الأسلوب الدفاعى والأسلوب الهجومى ولما يتجاوز العاشرة من عمره .

وفى هذه الأيام فقز أبوه نجم الدين إلى حكم دمشق . ونجم الدين حاكم حكيم ، وقائد حربى عظيم . وأول معنى لذلك أن يغلب العنصر العسكرى غيره من العناصر فى تربية ابنه صلاح الدين . فإذا كان

صلاح الدين قد تعلم حسابا وخطّا ولغة وحديثا من عالم العلماء عبد الله ابن عصرون وغيره من أساتذة أجلاء في الجامع الأموى ، فإن الفتون الحربية كانت تلقن له أكثر مما يلقن من الخط والحساب واللغة والحديث فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن صلاح الدين من أصل كردى لم نعجب من هذه النشأة الحربية كثيرا . فالأكراد كانوا معروفين بالشجاعة والاقدام وكانوا أهل فروسية يحبون الحرب والقتال ، رجالا ونساء على السواء .

ومن غريب المصادفات أن صلاح الدين يولد في يوم ذى بأس شديد على أمه وأبيه ، وعمه وأسرته .

فقد ولد في يوم الثمر فيه أبوه بالرحيل من تكريت حيث ولد صلاح الدين ! فكانت ولادته ذات أثر كبير على العائلة الراحلة : هل تفكر في أمرها أم تفكر في وليدها ؟ إنها المأساة القاسية !!

حاكم بأمر نجم الدين أنّ يرحل راغما من بلده ، وليس الرحيل له وحده ، وإنما له ولأسرته جميعا !! وهذا الأمر قد يهون على ما فيه من صعاب !! ولكن : لو تصورنا أن صلاح الدين يولد في هذه الليالى بالذات ، علمنا مقدار البؤس الذى لاقته الأسرة ، ومدى العناء الذى صادف نجم الدين أباه .

لقد كانت صرخاته تجاوبا حقيقيا مع حال أسرته في هذه الساعة !! وكان أنينه يذكر أباه بأنينه لولا رجولة الرجل ، ولولا الصبر الذى تعوده من قسوة الأقدار ، وتجارب الأيام .

ولم يكن نصيب صلاح الدين من الصيد والرياضة ، والقنص ، ومنازلة

الحيوانات الكاسرة ، وامتطاء الخيول ، وتربية الطيور ، والغوص في الصحراء ، وتحمّل الصعاب والأهوال ضئيلا .. بل كان كثيرا وكثيرا

وقد أشار إلى ذلك العماد الأصفهانى حين عثر فرس صلاح الدين في الميدان إذ يقول :

لاتنكرن لسابح عثرت به ... قدمٌ وقد حمل الحضمّ الزاخرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره ... فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقِلّ جوادك عثرة ندرت له ... إن الجوادَ لمن يُقيل العاثرا
وتوقّ من عين الحسود وشرّها ... لا كان ناظر بسوء ناظرا
واسلم لنور الدين سلطان الورى ... في الحادثات معاضدا ومؤازرا
فإذا صلاح الدين دام لأهله ... لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

والعوامل المكتسبة في تربية صلاح الدين لم تكن بأعمق من العوامل الفطرية التي فطر عليها . فمنذ ولادته سنة ٥٣٢ هـ ومخايل النجابة والذكاء ظاهرة عليه ، تسبق إحداها الأخرى . وإذا لم تكن الأرض خصبة ، فهما نزل عليها من الماء فلن ينفع !

أثبت ذلك المؤرخ تلياني فقال : « كان صلاح الدين رجلا شجاعا عظيما مقداما ، تمكن بمواهبه الفطرية التي فطر عليها أن يرفع نفسه لا إلى درجة سلطان فحسب ، بل أوجد لنفسه مجالا صار به فاتح البلاد ، ومدوخ الأمم الأفرنجية ، كما أنه حاز من النصر ما جعله سلطان عصره ، وأمير الأمراء لوقته »

وجاء في دائرة المعارف الإنجليزية ما ترجمته « ولقد تربى صلاح الدين

فى أكبر مركز للتعليم الإسلامى . فقد ظهر صلاح الدين فى ثوب أحسن متعلم مسلم » .

ولئن كان صلاح الدين قد وهب نفسا مستقبلة للخير ، وطبعا قابلا للتهذيب ، وأبا إنسانا حكيما ، فقد شاءت الأقدار لصلاح الدين أن يكون موضع رعاية نور الدين السلطان العظيم ، والمؤدب القاهر الحكيم فتقلب الفتى فى أحضانه كيفما شاء ، واكتسب من إدارة الحروب وفنونها ما أراد أو ما أريد له .

ولقد لعب فى دور هذه التربية عامل مهم لا ينبغى إهماله . ذلك أن البلاد العربية رُوِّعت بزلازل طاحت بالبيوت وكثير من الأحياء ، وهددت الشام كلها ، وتهدم بسببها عدد كبير من الحصون والقلاع ، فشهد صلاح الدين الغلام بناء هذه الحصون والقـــلاع من جديد ، واكتسب من ذلك تجربة جديدة من تجارب الحياة ، وسببا من الأسباب التى تتصل بفن الحروب .

وهكذا كانت نشأة صلاح الدين دروسا متوالية ، وتجارب متصلة لا تكون مبالغين إذا قلنا : إن الفتى كان لا يهضم كثيرا منها فى بعض الأحايين ! فلقد كانت حينئذ أكبر من عقله ، وأضخم من تفكيره ، ولكنه على أى حال انتفع منها إلى حد كبير .

وبذلك كانت عوامل بطولته مبكرة ، كما كانت رجولته تسبق سنه ، وعظمته بادية عليه منذ نعومة أظفاره ، إلى أن صار من العظماء الخالدين

تاريخ

احتضنت هذه التربية العسكرية القاسية ، فتانا ، الوسيم الجميل صلاح الدين . وذراع التربية العسكرية ليس فيها حنان ورفق ، وعناق وقبلات ! إنما فيها قسوة وصرامة ، وانصهار وتهذيب ، وحزم وعزم . وكان « الاحتضان » قاسيا على الفتى أول الأمر ، فهو لا يزال فى ريعان الشباب ، وللشباب حق فى الحياة غير حق الشيوخ والمحنكين . وكاد الفتى يدفع هذا العناق دفعا ، ويبعده إبعادا ، ويفر منه فرارا ، أو يستمهله إلى حين .

كان يرى من حق الحياة أن يحياها حسب أطوارها الطبيعية ، فطورا للصبا ، وطورا للشباب ، وطورا للرجولة وطورا للصعاب .

كان يرى وكان يحب ، ولكن الأقدار كانت على غير ما يرى وغير ما يحب ، والأقدار دائما أبعد نظرا من الإنسان ، وأسلم عاقبة من كل تفكير لعبقرى أو فنان .

إن الأقدار كانت تمهد الفتى وثبة من الوثبات الخالدات ، وجلوسا على عرش التاريخ . فإن قست فى عنائها ، فإن هذه القسوة من باب ما يريده الشاعر العربى :

فقسا ليزدجروا ، ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

ولئن قست فى عناقها ، فإن هذه القسوة من ورائها مجد عريق ، وقدم فى الخلود مكين .

وجلس الفتى يوما يقص على أبيه وإخوته هذه القسوة وذلك العنف فى لهجة ثائرة ، ولغة حادة ، وأبوه يستمع إليه فى لطف وبشاشة وابتسام . حتى إذا انتهى الفتى من حديثه هذا الثائر الصاخب ، هدأ الوالد من روعه وقال له فى هدوء : « غدا تحمل سيفك ، وتتقلد درعك وتتبع عمك ، وتنتظر حظك » .

وأصبح صلاح الدين أحد الضباط فى حامية سورية تحت قيادة عمه « أسد الدين » ، هدفت إلى مصر عام ٥٥٩ هـ ، ١١٦٤ م لنجدتها من الغزاة الأفرنج . ووصلت الحملة بلبيس وفتحتها ، ثم وصلت إلى القاهرة ودخلتها من باب القنطرة .

وفى هذه الحامية ابتدأت آثار العظمة الحربية تظهر فى صلاح الدين فقد احتل هو وحده بفرقة من الجيش الأقاليم الشرقية فى حذق ومهارة وسوّرها بسور يحميها من الأعداء .

وجاءت الحملات الأفرنجية قاصدة إياه ، فصمد فى وجهها مدة تتراوح بين الثلاثة أشهر والثمانية . وكانت هذه أولى التجارب الحربية العملية لصلاح الدين . وأثبت التاريخ أنه نجح فيها نجاحا باهرا ، وتعلم كيف يتم إعداد المؤن وتجهيز الجيش .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى تحدث فيها سوريا شقيقتها مصر لتخلصها من براثن الفتن الداخلية تارة ، ومن انقضاض الحملات الاستعمارية تارة أخرى !

لقد وفد صلاح الدين فى حاميتين عربيتين كبيرتين بعد ذلك ، ولئن دلنا هذا على شىء ، فإنما يدلنا على أن الاتحاد بين سوريا ومصر ليس وليد ضرورة من الضرورات ، يزول بزوالها ، وإنما هو من باطن التاريخ ، وفى ضمير الزمان .

كانت إحدى الحاميتين سنة ٥٦٢ ، ١١٦٧ م . وتقدمت الحامية حتى قربت من القاهرة ، وعسكرت على بعد أربعين ميلا جنوبها ، وذلك لصد الحملة الاستعمارية التى جاءت مرة أخرى لغزو القاهرة سنة ١١٦٧ م بقيادة أمورى وعسكرت فى جهة مقابلة للحامية السورية ، وشرع أمورى فعلا فى تحصين نفسه بإقامة جسر من المراكب وجذوع النخل . وبعد حصار ومناوشات بالسهام والنبال رأت الحامية السورية أن ترحل إلى الصعيد ، فتعقبهم المستعمرون قريبا من المنيا فكانت الوقعة المشهورة فى ١٨ أبريل سنة ١١٦٧ . وفى هذا الاشتباك الدامى ظهرت مواهب صلاح الدين بأجلى بيان ! !

فقد تغلبت الحامية السورية وكانت من ألفى جندى فقط ، على الأفرنج وهزمتهم هزيمة منكرة .

وهذه الموقعة طبعت فى صلاح الدين دروسا جديدة عن كرّ الحروب وفرّها ، وعن التعبئة العامة والروح المعنوية وأثرهما فى الجنود .

ولم تنس سوريا شقيقتها مصر عندما هاجمها الغزاة مرة أخرى ، فما أسرع ما جاءت الحامية السورية مرة ثانية واسعة الخطا ، ثابتة الأقدام بقيادة أسد الدين ، وفيها البطل العظيم صلاح الدين .

وكان هجوم الغزاة هذه المرة عنيفا جدا ، فاستولوا على بلبيس وحرقوا متاعها ، ونهبوا أموالها ، وأسروا رجالها . وتصرف وزير الفاطميين تصرفا زاد الأمر سوءا ، فأمر بإشعال النار فى الفسطاط ليجعلها خرابا يبابا فى وجه العدو . وتصوّر مكان الفسطاط حين تخرجهم النار من بيوتهم ، وتضطرهم إلى هجران أوطانهم . تصورهم وهم يجرون فى الشوارع ، ويبكون فى الطرقات ، ويصرخون بأعلى الأصوات .

ولقد بقيت آثار الحريق بمصر القديمة إلى اليوم !

ويصف المقريزى هذا المشهد فيقول : « كأنما خرجوا من قبورهم إلى الحشر ، لايعبأ والد بولده ، ولايلتفت أخ إلى أخيه » . وبمقدار هذا الخوف والفزع فى أهل القاهرة كانت فرحتهم الكبرى بمقدم إخوانهم السوريين .

وقرر المستعمرون الأفرنج الانسحاب من الأراضى المصرية بدون قتال . فكانت فرحة لا تخطر على بال .

ورأى الخليفة الفاطمى العاضد مكافأة لهذه الحامية الباسلة أن يسند الوزارة لأسد الدين . ولكن المنية لم تمهله كثيرا ، فأسندها بعد ذلك إلى البطل العظيم « صلاح الدين » .

رجل الساعة

فى ٢٥ جمادى الآخرة من عام ٥٦٤ هـ الموافق ٢٣ مارس ١١٦٩ م تسلم صلاح الدين مرسوم الوزارة من الخليفة الفاطمى « العاضد » :

وكان فيه كما جاء فى صبح الأعشى : « هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، حجته عند الله عليك ، فأوف بعهدك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين إليك ، ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه أعظم أسوة ، ولمن بقى بقربنا أعظم سلوة ، « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا . والعاقبة للمتقين » .

وإذا عددنا هذا التقليد الوزارى تبكيرا من المجد إلى صلاح الدين ؛ فينبغى أن نعده توافقاً من الأقدار السعيدة نحو البلاد العربية بصفة عامة ، ونحو مصر بصفة خاصة ! !

لقد كان صلاح الدين رجل الساعة الشعب العربى فى مصر . ذلك الشعب الذى كان منهوكا بالثورات الداخلية ، والهزات السياسية ، والغزو الاستعمارى ، وتآمر الخونة من الوزراء ، ومجاراة أهوائهم ، والانغماس فى أنانيتهم البغيضة !

لقد كان فى مصر وزيران . شاور وضرغام . كانا يضحيان بالشعب كله فى سبيل ما يبغيان !

وكأنما كُتب على الشعب العربى فى مصر من قديم الزمان أن ينصهر بنار المؤامرات ، وأن يكون وقود الفتن والأحداث .

وليت الوزير شاور كان يقنع بالفتن الداخلية ، بل كان يطلب نجدة الأعداء ، ولا يتورع من بيع البلاد للأجنبى الغاصب . . عمل ذلك مرارا من أجل شهوته الخسيسة ، وغرضه الدنىء .

والخلفاء الفاطميون غارقون فى قصورهم الشاهقة ، وموائدهم الواسعة ، ومراسيمهم العريضة ، وإقطاعهم الغير محدود . وبذلك كانوا فى واد من النعيم ، والشعب المصرى فى أودية من الجحيم .

كان يرزح ويئن تحت سيطرة الوزيرين ؛ فرة تحت هذا ، ومرة يحترق بنار ذاك ، لا يعرف له قرارا ، ولا يدرك له حقوقا . وكل الأحداث تدل على أنه منساق إلى الهاوية إن قريباً وإن بعيدا .

فلما تولى الوزارة صلاح الدين وجد قلوب الشعب مفتوحة له ، ووجد الأذرعة ممدودة نحوه ، ووجد الألسنة هاتفة به ، كما فتحت القلوب ، وامتدت الأذرع ، وهتفت الألسنة يوم أن جاءت ثورة ٢٣ يوليو تماما بتمام .

ومع أن صلاح الدين كان غض الشباب ، رقيق الإهاب ؛ إلا أن الأدوار الحربية التى مربها ، والتجارب العملية التى قاساها ، جعلت منه وزيرا ناضجا ، « ورجل ساعة » ممتازا ، ومنقذا عظيما ، وأهلا للبطولة وإقبال الشعوب .

والذى لا شك فيه أن صلاح الدين كان من هؤلاء النادرين الذين

وهبهم الله سبحانه القدرة على تغيير وجه التاريخ ، ومن هؤلاء النادرين الذين لايطرقون هذه الأرض إلا كل حين بعيد .

ويترك فى الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

• • •

ولم يظفر صلاح الدين بشهادة التقدير من الأصدقاء فحسب ؛ بل كان موضع إعجاب المؤرخين الأفرنج فيما بعد . عندما أرخوا حفاظه للعهد ، وتقديره للميثاق . فأعظم بها من أقدار سعيدة ساقت إلى مصر ، هذا الإنسان الخالد ، وهذا الفتى العظيم ، وذلك القائد البطل ! !

التحصينات الحربية

كان أول ما فكر فيه صلاح الدين أن يحصّن نفسه من مؤامرات الأعداء ، وأن يحصن البلاد من الغزو الاستعمارى ، ويحصن الشعب العربى المصرى من الخونة والمستغلين .

وسارت هذه الثورات التحصينية جنبا إلى جنب على قدم وساق . فأبعد صلاح الدين من لايطمئن إليهم ؛ ورتب جيشه على نظام جديد ، واتخذ هيئة أركان حرب جديدة . ولاحظ أن فى الجيش فتنة فقبض على رجالها ، وأمر بقطع رأس كبير الخصيان ، رئيسها » .

وما أن انتهى الوزير البطل من هذه المؤامرة حتى فوجىء بأخرى أشد وأنكى ، ذلك أنه كانت هناك مؤامرة عسكرية لاحتلال البلاد المصرية من المتآمرين الخونة للشعب مع الجيش الافرنجى الذى كان يتربص بالبلاد السوء والهوان .

وجاءت هذه الحملة الغاشمة عن طريق دمياط وحاصروها برا وبحرا ، ودمياط كانت تمتاز بموقع هام فى الديار المصرية . وكانت فى هذا الوقت الثغر الحبيب فى البلاد .

وكانت الحملة هذه المرة مزودة بأسطول بيزنطى ضخم ، وأجهزة

حربية ضخمة، واستعداد هائل . ولكن صلاح الدين قابل ذلك كله بقلبه الكبير وعزمه الحديدى ، وثقته فى الله ، وإيمانه به . وكانت عناية الله ترفرف على جيش صلاح الدين الذى أرسله إلى دمياط لرد الحملة . ففامت ريح هوجاء أتت على أسطول الأعداء ، وزاد هطول المطر ، وتواصل ليلا ونهارا ، فتحولت معسكراتهم ، ووقعت خيامهم ، واتخذت أمتعتهم . فاضطروا إلى الارتداد خائبين بعد أن غرقت منهم حوالى الثلاثمائة مركب فى قاع البحر العظيم . وكان ذلك فى أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ .

وانتهز صلاح الدين وجود الجيش فى دمياط ، وفرحة الشعب بالانتصار واستغل ذلك فى تحصين دمياط وتعميرها وإصلاحها مما لحق بها من تخريب . وعادت دمياط أحسن مما كانت أسوارا وحصونا ، وابتهاجا وانتصارا ، وأمد أهلها بالمساعدات اللازمة ، والإسعافات المطلوبة . . .

وفى نفس الوقت قد تخلص صلاح الدين من شاور الوزير الفاطمى الخائن للبلاد . وقضى على بعض فتن داخلية أرادت أن ترفع راسها فأسكتها بالحراب .

ثم التفت إلى القاهرة فوجد سورها مهدما باليا ، فجدده وقواه . وبنى القلعة الحصينة المتينة .

ولما كانت مدينة الاسكندرية تعتبر العاصمة الثانية للبلاد ، رأى صلاح الدين من الواجب أن يزورها . وتمت الزيارة فى شعبان سنة ٥٦٦ هـ

مارس ١١٧١ م . ولقد اهتم بها ودرسها دراسة حربية ، وأمر بإقامة أسوار تحيط بها وإشادة أبراج هناك ، وتحصين الموانىء تحصيناً قوياً . ولقد ذكر التاريخ أن الشعب السكندرى استقبله استقبالا شعبياً رائعاً . فلقد كانت أخبار انتصاراته قد سبقته إلى هناك .

ورجع من هذه الزيارة إلى مصر مطمئن البال قرير العين . وذلك كله لم يجعله يغفل أو يهمل شأن الأسطول البحرى . بل اهتم به اهتماما بالغا . فرتب له موارد مالية منتظمة ، وأضاف إلى مراكبه ، وغير قيادته ، وزاد عدد المقاتلين فيه ، وجعله تحت بصره وعنايته ، لأنه يعلم عن تجربة وعن يقين مقدارما للأساطيل من أهمية فى بناء الأمم . والمحافظة على مجدها الحربى والعسكرى .

والعجيب فيه أنه كان يشرف بنفسه على جليل الأمور ودقيقها باهتمام واحترام .

وبهذا يتبين لنا أن صلاح الدين كون جيشاً برياً عظيما ، وقوة بحرية هائلة .

ومن الطبيعى أن يحتاج ذلك كله إلى إعداد عظيم ، وترتيبات كبيرة . وقد كان صلاح الدين أهلا لذلك كله ..

* * *

كبرت مصر وكبر جيشها ، ووجب بعد ذلك أن يكون لها فيمتها التاريخية ، وسياستها الخارجية .

إن الاتصال بين مصر وسوريا يجب أن يكون سريعا ، يجب أن يكون بوسائل أخرى .. يجب أن يكون عن طريق الجو .

ولذلك استعمل صلاح الدين طريقة « البريد الجوى » فاتخذ الحمام الزاجل المعلّم ، فى سبيل ذلك ، وأدى الحمام رسالته على أتم حال .

فكان الحمام ينقل الرسائل من مصر إلى سوريا ومن سوريا إلى مصر عن طريق المدن الهامة ، والمحطات الرئيسية ، وكانت الأخبار تصل فى سرية تامة ، وسرعة بالغة ، وكم نفعت هذه الرسائل السريعة فى إنقاذ البلاد من أخطار جسيمة ، وأهوال شديدة .

والصحراء وشبه جزيرة سيناء لابد أن تشملها رعاية صلاح الدين ، إنها بمثابة الثوب للجسم ، فحصّن هذه الصحراء بإشادة قلعة عظيمة فيها على بعد ٥٧ كيلومترا إلى الجنوب الشرقى من السويس .

وكانت هذه القلعة فى غاية الدقة ، وتسمى هذه القلعة فى وقتنا بقلعة الباشا أو قلعة « الجندى » .

على أن صلاح الدين لم ينس مع ذلك كله صحراء ليبيا ، فسير لها حملة عسكرية لتأمين حدودها من الناحية الجغرافية العسكرية ، واستطاع صلاح الدين أن يؤمن الحدود من ناحية اليمن ، ومن ناحية الحبشة بعد تطهير بلاد النوبة مما كان فيها من فتن ..

كل تلك التحصينات إن دلت على شىء ، فإنما تدل على أن صلاح الدين بلغ من المهارة الحربية ، والفنون العسكرية شأوا كبيرا ، ومبلغاً عظيما ! ؟

السياسة الداخلية

لم تشغل البطولة صلاح الدين عن إحكام السياسة الداخلية فى مصر وتنظيمها تنظيما دقيقا .

وأول ما اهتم به صلاح الدين أن نحيا جميع العناصر وجميع الأديان جنبا إلى جنب على أحسن ما يكون الوفاق ويكون الوئام . فكل مسلم وكل مسيحى يجد فى قلبه رحمة وحنانا وفى نفسه بسطة وسعة .

كان يحب الإسلام ، لأنه دينه . ولكن لم يحمله هذا الحب على ظلم وبغى ، أى ظلم وأى بغى لغير المسلمين .

فالشعب العربى فى مصر ، كان مجمعا على حب صلاح الدين ، إذا دعا داعى الجهاد ، ونادى نداء الوطنية ، هبت الأمة كلها من أقصاها إلى أقصاها تدفع العدو وترد العناة .

فإذا جلس إلى الناس ، فالمصريون من مسلمين ومسيحيين وغيرهم يجدونه السامع لشكواهم ، والمجيب لندائهم ، والمسان السائل عنهم . وقد تتزاحم الوفود عليه فلا يضجر ولا يمل ، بل هو اللطيف الأنيس الوديع .

كان يعلم أن الشرق مهبط الأديان ، فكان يرى أنه لا بد أن تعيش

جنبا إلى جنب فى ظل السلام الوارف ، والعدالة الواجبة .

هذه مجملة يصدرها الأقباط بعد موت صلاح الدين جاء فيها ، وقد كان القبط يحبون صلاح الدين الذى حماهم ورعاهم ، وعرفوا فى ظله أيام السعادة والهناء ،

وأى دليل على هذا أكبر من وضع صورته بجانب الآنية المقدسة وفى ذلك يقول الشاعر الأندلسى :

خطوا بأرجاء الهياكل صورة	لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم
يدين لها قس ويرقى بوصفها	ويكتبه يثنى به فى التمائم

وكانوا يضعون صورته فى أديرة مصر كما جاء ذلك فى كتاب روسى

وإذا كانت هذه أخلاق صلاح الدين مع المسيحيين فى السلم ونفسه هادئة وعواطفه معتدلة ، فالعجيب أن هذه الأخلاق لم تتغير حتى مع المسيحيين من الأعداء ، وكان عنده فرق بين مسيحى وبين غاصب ، بين مسيحى وبين محتل ، بين مسيحى وبين مستعمر ، إنه كان يكره الفرنج ويكره الاحتلال ، ويكره الاغتصاب والاستعمار .

هذه سيدة مسيحية ترسل إليه خطابا وهو فى موقعة حربية . وكانت هذه السيدة من أسرى صلاح الدين ، وأرادت أن تطمئن على مصيرها ، وتعرف ما تكنه لها الأيام ووفدت الرسالة على البطل الظافر المنتصر وهو فى خيمته ، فما وسعه إلا أن بعث إلى السيدة يطمئنها ، وأمر بأن تصل السيدة إلى مأمنها فى أمان وسلام .

تلك الأعمال كلها انتزعت من مؤرخى الأفرنج تقديرا جليلا لصلاح الدين فى بطولته ، والإعجاب بشخصيته .

أما البطولة فيصورها استيفن إذ يقول : « كان صلاح الدين موفقا فى خططه ، باهرا فى عمله ، سريعا فى تقديره قوى عدوه ، لم يتردد لحظة واحدة فى تنفيذ ما رسمه . وكان لا يعرف الملل ولا التعب ، وكان صبورا على الشدائد ، يثق بنفسه وثوقا عظيما »

وأكبر دليل على تقدير الأفرنج لهذه البطولة النادرة ، والسماحة النبيلة اهتمام أمبراطور ألمانيا بزيارة قبر صلاح الدين عندما زار بلاد الشام سنة ١٣١٥ هـ ١٨٩٨ م . وكانت معه الأمبراطورة وقد خطب خطبة أشاد فيها بصلاح الدين ، وأرسلت الأمبراطورة إكليلا من الزهر ليوضع على ضريح البطل العظيم .

ولم يفت أمير الشعراء أن يسجل هذه الذكرى فقال :

عظيم الناس من يبكى العظاما	ويندبهم ولو كانوا عظاما
فهل من مبلغ غليوم عنى	مقالا مرضيا ذاك المقاما
دعاك الله من ملك همام	تعهد فى الثرى ملكا هماما
ارى النسيان أظمأه فلما	وقفت بقبره كشت الغماما
أتدرى أى سلطان تحيى	وأى ملك تهدى السلاما
دعوت أجل أهل الأرض حربا	وأشرفهم إذا سكنوا سلاما

* * *

نذكر ذلك فى مقام التدليل على أن صلاح الدين فى سياسته الداخلية كان يحترم الأديان فى كل زمان ومكان .

* * *

ولما خلا الجو لصلاح الدين بعد وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين أخذ ما وجده من أموال ووزعها على الشعب وسط آيات الفرح ، وعلائم الابتهاج . وكان يوما مشهودا أخذ فيه مفاتيح القلوب واستولى على الألباب .

وقد اهتم بنشر العلم النافع ، فحرر العقول تحريرا صحيحا ، بفتحه المدارس ، وقضائه على دعاة الزيغ والإلحاد ، والفلسفات الضالة المضلة وأقام أسس الأخلاق ، ونشر دعائم العمران .

فأما السياسة العسكرية والحربية فقد كانت من الدقة بمكان عظيم . نظم الجيش ورتب أحواله وموارده ومصارفه وفرقه وأمراءه ، وقد كان يغدق فى هذه النواحى العسكرية أموالا طائلة ، لأنه يعلم وهو القائد العسكرى أن الأمم بقوتها ، وعظمة جيشها ، وبسالة جندها ، حتى ذكر المقريزى أن ميزانية بعض فئات الجيش بلغت فى بعض الأحيان ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف وسبعين ألفا وخمسمائة دينار . وليست هذه أرقام الميزانية كلها . وإنها لميزانية عظيمة إذا قيست بميزانية الدولة العامة

ولئن دل ذلك على شىء ، فإنما يدل على أن صلاح الدين كان يقدر الجندى ويكرمه ، وكان يحرص على إيجاد قوة ضاربة لديه ، يوفر لها وسائل الراحة ليجدها على أكمل استعداد عندما يشاء .

ولم يهتم بكثرة الجند فى الجيش ، بل اختار العناصر الصالحة ، فالقوة المادية وحدها لا تنفع ، إذا لم تسندها معنوية المحارب ، فكان يشترط شروطا معينة فى الجندى المقاتل ؛ ويهمه كثيرا عنصر الأخلاق فى هذه الحاميات ؛ وكانت حركات التدريب لا تنتهى فى الجيش .

ثم وجه اهتمامه إلى تحصين الثغور فى شمال الدلتا وفى دمياط ، واهتم بصفة خاصة بثغر الاسكندرية كما ذكرنا فى « التحصينات »

ونزيد هنا أنه أنشأ مكتبا للجارك قد درة على البلاد مبالغ ضخمة ، وكان المقصود من هذا المكتب - كما ذكر ابن جبير - تقييد المراكب القادمة إلى الميناء ، واستحضار من كان فيها واحدا واحدا ؛ وكتابة أسمائهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ؛ ويسأل كل واحد منهم عما لديه من سلع ليؤدى ذلك كله .

والحق أن موظفى هذا المكتب أدوا أعمالهم بأمانة . وقاموا بمراقبة الداخلين إلى البلاد والخارجين منها ، وهذا له فى السياسة الحربية أهمية عظيمة .

ولما كانت البلاد معرضة لهجوم العدو فى أى لحظة كان لابد من أن تبنى أماكن تحفظ فيها موارد البلاد أكبر مدة من الزمان ، فبنيت أماكن مخصوصة فى الاسكندرية لهذا الغرض كانت تخزن فيها الحبوب وغيرها . وكانت هذه الأماكن تختار بدقة حتى لا تكون سببا فى سوس هذه الغلال . ولقد ذكر أحد المؤرخين أن القمح الذى يراد خزنه ، لابد أن يكون أسمر اللون ، صلب الجسم ، محكما جفافه فى سنبله ، والأرض

لا بد أن تكون يابسة ، وحيطانها ليس بها نداوة ، وأبوابها ونوافذها من جهة الشرق لأنه مهب ريح الصبا ، وهى أقل الرياح رطوبة وعفنا ولم تبلغ دقة عهد صلاح الدين إلى هذا الحد فقط ، بل تمكن من حفظ اللحم المجفف وتقديمه فى الوقت المناسب .

كل هذه الترتيبات والتحصينات كان يشرف عليها بنفسه ، ويمدها بفكره ، ويطمئن على تنفيذها بين الحين والحين . وبذلك نجح فى سياسته الداخلية نجاحا عظيما .

نجح إذ حصن نفسه من الأعداء ، وجذب حوله قلوب الشعب بأخلاقه وحسن معاملته ، وأشرف على تحصين بلاده على أحدث طراز يسمح به فى تلك الأيام .

القلعة الحصينة

أصدر صلاح الدين أمره إلى « وزير الأشغال » فى حكومته ببناء قلعة ضخمة يضم سورها القاهرة ومصر معا . ويخبرنا العماد الأصفهانى عن قصة هذا المشروع الحربى الخطير فيقول : « وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها . فقال : إن أفردت كل واحدة منهما بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها . وإنى أرى عليهما سوراً واحداً من الشاطىء ، وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم . فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقس ، وانتهى به إلى أعلى مصر بروج وصلها بالبرج الأعظم(١) » .

واختار صلاح الدين لهذه القلعة مكانا استيراتيجيا هاما يشرف منه على الداخل والخارج ، وليتمكن من قمع أى فتنة فى مهدها ، وليمكنه من رؤية الأعداء ومحاصرتهم إذا داهموه بالعدوان .

وابتدأ المشروع على نطاق واسع من التكاليف الباهظة ، يدلنا على ذلك الوصف التفصيلى الدقيق الذى أورده الدكتور نظير سعداوى فى كتابه « التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى » ويقول فيه : « والقلعة عبارة عن بناءين : أحدهما وهو الجزء الشمالى

---

(١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامه .

على شكل مستطيل شيد فى سوره أبراج مستديرة حصينة خارجة عن السور الملتصقة هى به وبارزة عنه ومتباعد بعضها عن بعض بمسافات مقدرة بالنسبة إلى مرامى الأسلحة المستعملة وقت ذاك . والوصول إلى هذا الجزء الشمالى فى العصر الحاضر يكون باختراق الباب الجديد الذى أنشأه محمد على . ويرتكز الجانب الأيسر من هذا الباب على باب المدرج القديم .

ثم يظل الزائر متجها صوب الجنوب حتى يخترق الباب الوسطانى ، ومن ثم يواجه جامع محمد على وجامع السلطان الناصر . فإذا ترك ناصية اليمين وانحرف إلى اليسار وجد نفسه أمام باب القلعة وهو المدخل الحالى للجزء الشمالى من القلعة ، ويقوم على جانبيه برجان كبيران . . . ثم إذا اخترق الزائر باب القلعة وسار فى الاتجاه الشرقى مع السور وصل إلى برج المقطم ، وهو حلقة الاتصال بين الجزء الشمالى من القلعة والجزء الجنوبى منها .

ويتفرع من برج المقطم خطان من التحصينات الحربية ، يتجه أحدهما جنوبا ليسور الجزء الجنوبى من القلعة ، وبه ثلاثة أبراج من طراز معين ، على حين يتجه الثانى شرقا ليسور الجزء الشمالى من القلعة . وهو ما يعنى الباحث هنا .

ومهمة برج المقطم هنا الإشراف على الاتجاهين : الشمالى والجنوبى معا . ولا يزال البرج حافظاً لمظهر الضخامة . وبه صهريج ماء كبير . وعلى مسافة ٩٠ مترا شرقى برج المقطم يجد الزائر نفسه داخل برج كركيلان . يتخلل السور بين هذين البرجين الكبيرين فى تلك المسافة برجان صغيران

هما برج سفتا ، وبرج العلوة ثم يبرز من السور على بعد ٥١ متراً شرقى برج كريكلان برج نصف مستدير اسمه برج « أنطرفا » طوله ٢٥ متراً إلى برج المطر . وهذا البرج الأخير فى الواقع برجان متلاصقان . وشكل كل منهما شكل الدائرة . ويخرج من برج المطرستار طوله ٥٩ متراً ينتهى عند برج المبلط المقام على الزاوية الجنوبية ، وهو نهاية السور الجنوبى من الجزء الشمالى من القلعة ويلاحظ أن السور من برج المقطم إلى مسافة ٥٠ متراً قبل الزاوية الواقع عندها برج المبلط مشيد على أرض مستوية ، وبقيته على صخرة عمودية يبلغ ارتفاعها ٩٠٨ متر ، وهى تدور مع قاعدة برج المبلط ، وتظل متصلة من بدايتها بالسور الشرقى ثم تأخذ فى الابتعاد عنه بمقدار ٧ أو ٨ متراً وبرج المبلط أقرب أجزاء القلعة مسافة بالمقطم حيث تبلغ المسافة بينهما ٣٥٠ متراً . ويبدأ السور الشرقى من برج المبلط فى اتجاه ١٧٥ مترا على استقامة واحدة . ويقطعه برجان نصفا مستديرين يسمى أحدهما برج المقصورة ، ويقسمان إلى ثلاثة أجزاء طولها ٥٥ ، ٥٣ ، ٤٣ متراً على الترتيب . وتتكون الأبراج من طبقتين ، اكل حجرة من حجراتها ثلاثة مزاغل ، وتنتهى المزاغل بممرات جانبية من الستائر من طبقتين لمسافة ٧ أمتار . وتنتهى الصخرة الموازية للسور من الخارج بانتهاء برج الإمام .

وإذا ترك الزائر برج الإمام وصل إلى برج المستدير على مسافة ٦٦ مترا وعلى مسافة ٢٢ مترا منه يقع برج الحـــداء . وهذان البرجان الأخيران يتسلطان على الطريق بين القلعة والمقطم . وهو الطريق الذى يخترقه القادم إلى القاهرة من الجنوب إذا ما تعذر عليه دخولها من الشمال .

وهذا يوضح سبب وجود باب سرى فى السور على بعد مترين من باب الحديد لتخرج الحامية وتحول دون مرور العدو بهذا الطريق ويمتد السور الشمالى من برج الحداء إلى برج الزاوية الشمالية الغربية وطوله ٦٥٠ مترا من الشرق إلى الغرب ، ويقع على بعد ١٢١ مترا غربى برج الحداء ، برج الصحراء الذى يعلوه صهريج ماء ملون باللون الأحمر ، ويبدو شكل برج الصحراء من الخارج كبرج نصف دائرى ، بينما يبدو من الداخل على شكل مستطيل ... ومن الناحية الحربية يهمنا الجزء الشمالى من القلعة وهذا وصفه ... ولهذا الجزء الشمالى بابان : أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ، ويقال له : الباب المدرج اشتقاقا من درجانه المنحوتة من الصخر ، وعرف قديما بباب سارية لمواجهته مسجد سارية الموجود بباب القلعة . ويجلس بداخل هذا الباب والى القلعة لضبط ما يدخل إليها وما يخرج منها لأن هذا الباب كان سبيل الإمداد . أما الباب الثانى فهو باب القرافة المواجه للقرافة والمقطم . وبين البابين مسافة فسيحة فيها آثار بيوت » .

ونكتفى بهذا القدر من الوصف المعمارى الحربى لنفيد أن هذه القلعة قد كانت عملا خالداً من أعمال صلاح الدين الحربية التحصينية . وقد أدت هذه القلعة مهمتها خير أداء . فلقد كانت الحروب فى تلك العهود يحتاج الانتصار فيها إلى الأسوار والقلاع حيث إن الأسلحة لم تكن فتاكة كما هى فى عهدنا الآن .

مكيدتان

عظماء التاريخ لابد أن يدفعوا ثمنا باهظا لهذه العظمة . قد يكون هذا الثمن سهرا طويلا ، ونوما مؤرقا ، وقد يكون تفكيرا مضنيا ، وحيطة وحذرا دائمين . فإذا وصل العظيم إلى كرسى الحكم ، ذلك الكرسى المكهرب ، سلطت عليه الأضواء ، وأحصيت عليه الحركات والهمسات ، وحيكت حوله الدسائس ، ونظمت له المؤامرات .

وصلاح الدين أحد العظماء الذين ضربوا رقما قياسيا فى هذا المضمار ففى كل مجتمع أناس على استعداد لبيع ذممهم وضمائرهم ، وفى كل أمة طامعون وحاقدون ، وفى كل طبقة أصحاب أغراض وشهوات . ولذلك كان من أبرز الصفات العمرية أنه لم يكن خبا ، ولا يخدعه الخب ، أى لم يكن لئيما ولا يخدعه اللئيم .

وهذه القاعدة العمرية إن لم يكن صلاح الدين قد تمثلها تمثلا كاملا فقد أخذ منها بنصيب كبير .

لقد كان سليم الصدر لا يضمر حقدا ولا ضغينة ، ولكنه مع ذلك كانت عنده حاسة سادسة يشم بها الأخبار ، وكانت عنده مخابرات قوية ، شديدة الانتشار . وكان يتوخى الصالح العام ، ويحرص على مصلحة الشعب . وفى سبيل ذلك أعلن زوال الخلافة الفاطمية ، لأنها

كانت مثالا للخذلان والضعف ، ومسرحا للفتن والدسائس . ولكن هذا الأمر لم يعجب بعض العناصر الرجعية فى البلاد ، تلك العناصر التى لا تعيش إلا على النهب والاستغلال ، والمطامع الرخيصة . . إن هذه العناصر كانت تعيش من دم الشعب ، تمتص قوته ، وتساوم على حرياته ولكن صلاح الدين لم يرض لهذه العناصر أن ترفع رأسها ، أو تظهر صوتها . . فأخذت ترسم السياسات فى الخفاء ، وتحيك المكائد فى الليل البهيم .

وليت هذه العناصر كانت وحدها ضد صلاح الدين ، إذاً لهان الأمر وخفت المسؤلية .

لقد دبر المكيدة الأولى بقايا الفاطميين فى مصر ووليم الثانى ملك صقلية وأمورى ملك بيت المقدس ، وسنان رئيس الحشيشية !

ثلاث دول وثلاثة ملوك وعنصر فاطمى يدبرون المكيدة الأولى للقضاء على صلاح الدين وآثار صلاح الدين .

ثلاث دول وثلاثة ملوك يتآمرون ضد الحاكم البسيط بالنسبة لقواتهم وأعدادهم ، فإن مصر كانت لا تزال دولة صغيرة فى منطق الاستعمار حينذاك .

ثلاث دول وثلاثة ملوك يرسمون الخطط ، ويدبرون الأمور للانقضاض على الأسد فى عرينه ، واستلاب سلطانه من مكنه .

ما أشبه هذه المكيدة الثلاثية بالعدوان الثلاثى الذى دبرته بريطانيا

وفرنسا وإسرائيل على شعب بورسعيد فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ؟ القضاء على حريتنا ، وتمزيق أمتنا .

ما أشبه اليوم بالبارحة .

إن صلاح الدين لم يكن موجودا فى مصر حين ذاك . لقد كان يحاصر الكرك والشوبك ، وكانت المؤامرة محبوكة الخيوط ، محكمة الأطراف فعقدت عزمها على أن تحول بين صلاح الدين وبين مصر حين يرجع إليها

ولكن هاتفا ربانيا يهتف بصلاح الدين أن أسرع بالرجوع إلى مصر .

ويسرع البطل فى الرجوع ، ويكون هذا الإسراع وحده أول سلم فى القضاء على هذه المؤامرة ، وبشير سعد بانتصار صلاح الدين عليها

إن الخيوط الخائنة كانت تحاك سرا لاندلاع ثورة فى البلاد تستنجد بجيوش الاحتلال . وهذه الجيوش كانت على أهبة الاستعداد . ثم تنادى هذه الثورة بحكومة من الفاطميين . يؤيد هذه الحكومة جيوش صقلية والقدس ، وتقضى هذه الحكومة أول ما تقضى على حكومة صلاح الدين ولا يهمها بعد ذلك أن تعيش البلاد محتلة أو حرة .

إن الحرية والكرامة كلمات جوفاء عند هذه العناصر الفاسدة ، فالحكم عندها هو كل شىء .

وأظن من البداهة أن نقول : إن هذه المكيدة لو نجحت لقضت على المشاريع الجبارة التى كان يدخرها صلاح الدين لشعب مصر وشعوب

العروبة والإسلام جميعا . ونفذ ملك صقلية فعلا أحد أطراف المؤامرة الجزء الذى كلف به ، فأرسل حملة مكونة من خمسة عشر ألف مقاتل وأربعين مركبا وست وثلاثين سفينة حربية ، ودخلت قطع الأسطول الصقلى الإسكندرية . وكان فى هذه الحملة دبابات واستعداد كبير ، وكان الطرفان الآخران يقومان بتنفيذ نصيبهما من المؤامرة .

ولكن المخابرات المصرية قدمت لصلاح الدين تقريرا بهذه المؤامرة وهى لاتزال وليدة فى مهدها . فبادر صلاح الدين وقبض على زعماء الفتنة فى مصر وأخذ يشنقهم واحدا واحدا ، وكان ذلك فى عام ٥٦٩ هـ ١١٧٤ م .

ثم تجهز بنفسه ليصد الحملة الصقلية فى الاسكندرية ، وكان خبر هذا التجهيز أكبر مشجع لأهل الاسكندرية لينقضوا على العدو . فقاموا عليه قومة رجل واحد ، وهزموه هزيمة منكرة ، واضطر العدو إلى الانسحاب بعد أن تكبد خسائر فادحة ، علما بأن التاريخ ينبئنا أنها كانت على أتم تجهيز - كما ذكرنا - ولكنها كانت صاحبة باطل ، أما أهل الاسكندرية فقد استماتوا باسم الدفاع عن الوطن والعرض والواجب ، وهذا له أثر كبير فى الناحية الحربية ، يؤيدهم روح من عند مولاهم ، وترفرف عليهم عزمات صلاح الدين . والقائد وإن بعُد عن جنده ، فإن عظمته وشجاعته وبطولته لها دورها فى المعركة .

وارتد الصقليون عن الاسكندرية ، كما ارتدت جيوش فرنسا وبريطانيا فى عدوانها الغادر عاشين مدحورين .

وإذا كانت الحملات الغازية قد نعت حظها ، وفقدت شخصيتها ؛ فإن أهل مصر قد رقصوا طربا لهذا الانتصار العظيم ، وذلك الفوز الكبير ، فضلا من الله ونعمة ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم

* * *

وأما المكيدة الثانية ، فقد كانت فى أقصى الصعيد بقيادة وال من ولاته فى سبتمبر سنة ١١٧٤ م ، ولكن صلاح الدين تمكن من القضاء عليها وتشتيت جنودها ، والقبض على زعيمها

كل هذا يدلنا على أن هذا البطل كان محفوفا بالبركات السماوية . فما من مؤامرة إلا وتكبت ، وما من مكيدة إلا وتخمد ، والشعب العربى المصرى يزداد له حبا ، وبه تمسكا ، وحوله تشبثا .

إن دعاة الفتنة يتربصون الدوائر دائما بعظماء التاريخ ، ولكن كيدهم دائما فى نحورهم . والعاقبة دائما للمتقين .

فتنة

من يوم أن تجاور هذان القطران الشقيقان : مصر والسودان ، وهما قد ربطت بينهما روابط أزلية أبدية ، لا يمكن أن تقصم عراها ، ولا تموت أسبابها .

ذلك هو رابطة العقيدة والعروبة والعوامل الكثيرة المتشابكة ، وإلى ذلك كله رابطة النيل الذى يغذى بمائه الحياة ، ويبث الرى فى الشعبين الأصيلين العريقين ، وعلى هذا الحال منذ العهد الأول للبشرية ، لا تنفصل هذه عن تلك ، ولا يستغنى هذا عن ذاك . ولكن بين الحين والحين تدخل عوامل استعمارية ، أو أسباب دخيلة تغبر الجو ، وتعكر الصفاء ، ثم لا تلبث أن تنقشع .

من ذلك أن مؤتمن الخليفة الفاطمى كان له تأثير كبير على الجنود السودانيين الذين كان يبلغ عددهم ٥ ألفا تقريبا . ومرحبا به وبتأثيره لو استغله فى الخير ، وحوله إلى الإصلاح ، إذا لتقابلنا والتقينا . ولكن النفوس الشريرة تطغيها القوة . ويستخدمها الشيطان فى غالب الأحيان .

لقد عز على مؤتمن الخليفة أن يرى صلاح الدين قد ملك قلوب الشعب العربى المصرى وحاز الانتصارات الساحقة ، وتغلب على الأعداء ، وهتفت به الألسنة ، فماذا يعمل ؟

تآمر مع الفرنج على البلاد فى سبيل شهوته الدنيئة ، وأرسل إليهم رسالة هامة وضعها فى نعل جديدة وبعث بها مع رجل من رجاله . ولكن « قلم المخابرات » فى عهد صلاح الدين كان موفقا ، فاستطاع أن يكشف هذه المؤامرة قبل أن تشيع وتذيع ، وأن يقبض على الجندى ويصادر الرسالة ، ويرفعها إلى صلاح الدين . وفى صباح من الصباحات ، أو أمسية من الأمسيات يقرأ البطل العظيم هذه المؤامرة المدبرة ، ويفحص إمضاءها جيدا ، فيجده بعينه إمضاء « مؤتمن الخليفة » . ويأسف صلاح الدين لا للمؤامرة فحسب ، ولكن لهذه النفوس التى اؤتمنت فخانت وغدرت !!

وتم التخلص من مؤتمن الخليفة ، الذى كان ينوى القيام بحرب أهلية لا يعرف مداها إلا الله سبحانه . ولكن الجنود السودانيين صعب عليهم هذا النبأ ، وثقوه بثورة طائشة ، وفورة جامحة .

ولو تصورنا ثورة من خمسين ألف جندى على حين غفلة ، لتصورنا مقدار ما تحدثه من شغب ، حتى إن العماد الأصفهانى يروى أنهم كانوا إذا قاموا على أى وزير سلبوه سلطانه ، وأرغموه على الاستقالة .

وحاول صلاح الدين أن يهادن الثائرين وأن يلتقى معهم ليتفاهم . وهيهات .

كانوا يظنون أن تخلص صلاح الدين من مؤتمن الخليفة مقدمة للقضاء عليهم . . ولا ندرى : من أى وكالة للأنباء ، أو أى مصدر للدعاية ، كان الجنود السود يستقون هذه الأخبار ؟ وأغلب الظن أنها الدعاية الاستعمارية المسمومة .

ولكن صلاح الدين عزم أمره . فإذا أريد الفتوح البيضاء أن تكون فتوحا حمراء فلا مانع ، وفه الأمر من قبل ومن بعد . ووجد السودانيون أنفسهم فى قبضة رجل لا تهزه العواصف ، ولا تلعب به العواطف . وجدوا أنفسهم أمام إنسان يرحم من يستحق الرحمة . ويقسو على دعاة الفتنة أشد القسوة .

حاصرهم وأخرجهم من القاهرة إلى الجيزة ثم إلى أقصى الصعيد .

* * *

ويذكر المؤرخون أن كنز الدولة قد ثار عام ١١٧٤م ثورة عنيفة فى أسوان . وكان يرجو أن تقوى شوكته ، ويكثر أتباعه ، قبل أن يصل إليه صلاح الدين . واستطاع أن يلعب بعقول هؤلاء المغلوبين على أمرهم وحرك فيهم بواعث الحزن ، ودفائن الثأر . فتحركت فيهم نار العصبية الجاهلة ، وتنبهت فيهم شرور الحمية المستبدة .

ولكن صلاح الدين بلغته هذه الأنباء مسرعة . فسير إليهم أخاه العادل فى حملة من الجند القوى . فسحقهم سحقا . وهزمهم هزيمة منكرة

وكان أحرى لهذه الفئة أن تسكن وتسلم الأمر ، وتترك الزمام ، خصوصا بعد أن قتل عميدهم الثائر ، كنز الدولة ، ولكن : ماذا تعمل لنفوس جبلت على الشر ، واستمعت إلى الإذاعات الحاقدة ، والأنباء المثيرة ...

لقد تحركوا من جديد مرة أخرى يريدون أن يثأروا ويريدوا أن يتخلصوا من بطل العروبة والاسلام ، ورجل الفتوح . ولكن الله عز

وجل مكّن صلاح الدين من رقابهم ، فما لبث أن قضى على هذه الزوبعة قبل أن تمتد وتتشعب .

والذى يستحق التسجيل هنا أن هذه العواصف الهوجاء لم تغير قلب صلاح الدين على إخوانه السودانيين . فهم لمصر ، ومصر لهم .

وبهذه المعاملة الكريمة كان يعامل إخوانه السودانيين ، حتى أنه وصل به الأمر إلى أنه قد استعملهم فى الجيش العامل المحارب . وهذا يدل على منتهى الوثوق والارتكان إليهم .

وذابت هذه الثورات فى يقظة صلاح الدين ، واستطاع أن يقضى على هذه الفتن بعين الحكيم ، ويد القوى الأمين .

صد العدوان

عن مكة والمدينة

ما أشد ما لقى المسلمون من الصليبية الغازية ، وما أسوأ ما كانوا يبنون للعالم العربى والاسلامى من شرور ومصائب .

لقد دبروا فى أنفسهم أمرا . إن صلاح الدين قد استولى على صحراء سينا ، وفتح أيلة ، ووضع فيها حامية عظيمة ، واستولى على العريش ، فلماذا لا ينقض الأفرنج صلاح الدين ويكدرونه ؟ ويستولون على أيلة ، ثم ينفرون إلى مكة والمدينة قلب العالم الإسلامى ، ومهبط الوحى ، ومكان المقدسات .

فإذا ما استولى الأفرنج على هذين الحرمين الآمنين العظيمين ، فقد تمكنا من القضاء على العالم الإسلامى وطعنه فى الصميم ، وينتهى ذلك بقطع الصلات الحسية بين العالم الإسلامى وبين قبلته المعمورة . سواء كانت هذه الصلة عن طريق البر أو البحر .

وعندما يصلون إلى هذه الغاية يعملون على تحقيق غاية أخرى فى منتهى الأهمية ، وهى السيطرة التامة على التجارة عن طريق البحر الأحمر وذلك باحتلال « أيلة » من الشمال ، وعدن من الجنوب ، وهاتان غايتان واسعتا الفائدة .

وشدت الحملة الأفرنجية رحالها فعلا ، وتوجهت إلى « أيلة »

وحاصرتها ومنعت عنها وصول الماء إليها من الطريق ، وكاد إخواننا العرب يهلكون فى هذا البلد العربى . ولكن الله سبحانه ، وهو الرحيم بعباده . أنزل عليهم مطرا مدرارا ، أرواهم وأحيا زرعهم وأمدهم بالحياة ، فاستبسلوا أمام العدو ولم يقبلوا التسليم ، فواصلت الحملة سيرها فى البحر حتى باغتت أهل عدن .

وفتح أهل عدن المساكين عيونهم يوما ، فإذا بهم محاصرون من عدو غاشم ، وحملة ظالمة لم يعرفوا لها سببا ، ولم يدركوا لها غرضا بادىء الأمر . ولكن ما قامت به الحملة من سلب ونهب ، جعلت أهل عدن يفهمون أن الأرض مملوءة بالشر ، وأن هناك أمما غريبة تعيش على الظلم والسفك والاغتصاب .

وقصدت الحملة المدينة المنورة عن طريق الصحراء .

ولعل القارىء يتساءل الآن فى حيرة ودهشة : كيف يكبت صلاح الدين ويقف مكتوف الأيدى أمام هذه المآسى كلها ؟

وأبادر بالجواب فأعلن أن هذه الحملات كان فيها عنصر الفجاءة والسرعة ، ومع ذلك كله ، فلم يكبت صلاح الدين لحظة واحدة دون أن يدبر فيها أمرا ، أو يجهز فيها جيشا .

لقد كان صلاح الدين فى الشام حينذاك . فأصدر أوامره بتجهيز الأسطول وترتيب قيادته ، وإبحاره فورا لصد هذا العدوان الآثم ، وهذه الحملة الغادرة ، كما أمر بترتيب جيش على وجه السرعة ليقتفى أثر الجيش الأفرنجى فى الصحراء .

وكان للبريد الجوى فى هذه الأيام أثره السريع ؛ وتأثيره العظيم . فاستقبل الشعب هذه الأوامر بما يناسبها من أهمية وتقدير ، ومن الذى يبلغه أن الصليبيين على مسافة قريبة من المدينة ثم يهنأ له طعام أو شراب بعد ذلك ؟

إن احتلال شبر واحد فى الوطن العربى أمر يفزع له الخاطر ، فكيف إذا كان المقصود بالحرب . هو المدينة التى يحل فيها نبى الإسلام ، ورسول الإنسانية والسلام ؟

جهز الجيش نفسه ، وأبحر الأسطول ، فى شوق إلى القتال واستعداد للنضال . وما أن تقابل الجيشان ، حتى سلم العدو ، واستطاع الجيش العربى المصرى أن يقبض على الأسرى فردا فردا . ورجع الجيش بأسراه ترفرف عليه راية النصر .

واستقبل الشعب العربى فى مصر جيشه إذ ذاك بالفرح والزغاريد . وكان حكم « القيادة العامة للقوات المسكرية » فى هؤلاء الأسرى شديدا قاسيا ، لأن الغرض الذى كانوا يريدونه ، غرض تشيب له الولدان ، وتهتز له الأفئدة .

وحمى الله مكة والمدينة وصحراء سينا وعدن وغيرها من الأفرنج بفضله ، وتوفيق صلاح الدين وجيش صلاح الدين ، وهمة الشعب العربى فى مصر ومحافظته فى عزة وقوة على تحرير الوطن العربى من أى عدو غاصب ، أو أمة محتلة .

الخطوة التالية

استقرت قدم صلاح الدين فى مصر ، واستقر له الحكم فيها ؛ وهيأت له الأقدار إجماعا على حبه ، من الشعب العربى كله ، فى مصر من أقصاها إلى أقصاها .

ولكن الوصول إلى الحكم ليس هدف صلاح الدين ، فنفسه كانت تتفاعل فيها آمال كثيرة ، وأهداف واسعة ، ليس من بينها الجلوس على كرسى الحكم ، ولا الوصول إلى السلطان .

إن هذه « الحكومة » ما هى إلا وسيلة لتحقيق الأهداف الكبرى ، ونافذة يدخل منها إلى القبض على العدو ، والوصول إلى هزيمته .

وذلك هو السبب فى أن صلاح الدين لم يبن له قصرا مشيدا ، أو بيتا رفيعا .

لقد كان يهفو قلبه إلى ما هو أعظم من البيت ومن القصر .. والتاريخ الذى ينبئنا عن « إسلامية » صلاح الدين فى إسهاب وحرارة ، يجعلنا نقول : إن هذا الفتى البطل كان ينظر إلى الحياة من زاوية الفناء ، وأنه لا يراها إلا سلما للنعيم الخالد ، والدار الباقية .

كان سمعه مملوءا بهذه الآية من كتاب الله « قل متاع الدنيا قليل

والآخرة خير لمن اتقى ، فكانت آماله أكبر من الدنيا وقصورها ، بل جلس على قمتها ثم أرسلها فى هدوء .. لارغبة لى فيك .

كان كل همه موجها إلى تحصين البلاد ، فتحصنت دمياط والإسكندرية وصحراء سيناء .

وكان كل همه إيجاد وعى كامل فى الشعب العربى فى مصر ، فحدث الوعى وأصبح العربى فى هذا الجزء من الأرض منفعلا بعقيدته ، شاعرا بعروبته ، مؤمنا بكرامته .

وكان كل همه موجها نحو القضاء على أعداء الشعب ؛ من الخونة والمتآمرين على عزته وسيادته .. وقد تم القضاء عليهم ؛ فذهب شاور وضرغام ومؤتمن الخليفة ، وماتت الفتن وآثارها .

وكان كل همه موجها لبناء القاهرة ؛ وتمت القلعة بأفخم وأدق مما كان ينتظر لها فى تلكم الأيام .

• • •

وإذا : فالخطوة التالية أن تتجه آمال صلاح الدين إلى القطر الآخر الشقيق ، إلى الشام ،

فمصر لا تستغنى عن الشام ، والشام لا يستغنى عن مصر ، بل إن هذه المنطقة لا يستغنى بعضها عن بعض ، بأى حال من الاحوال .

الشام

أقدار

أرادت نزغات الشيطان فى سالف الأزمان أن تتدخل لتفرق بين سوريا ومصر ، وتكون بينهما جفوة كادت تؤدى إلى الاشتباك المسلح ولكن الأقدار العليا أرادت لسوريا ومصر أن يتوحدا رغم أنف الشيطان !! كما أراد الاستعمار فى هذه الأيام لسوريا ومصر أن يتفرقا ، ويكون بينهما جفوة ، ولكن الأقدار العليا ربطت بينهما برباط لن تنفصم عراه إن شاء الله ؛ ورغم أنف الاستعمار ولدت الجمهورية العربية المتحدة .

أما قصة « النزغات » الأولى ، فتبتدىء خيوطها من « نور الدين » حاكم الشام أيام صلاح الدين !

فقد رأى نور الدين فى « صلاح الدين » أنه أصبح سلطان مصر الأوحد وصاحب الكلمة النافذة فيها ، والرجل الذى اجتمعت عليه الكلمة ، والحاكم الشعبى الذى التفت حوله القلوب !!

ورأى نور الدين فى ذلك خطرا على مركزه ، وتهديدا لسلطانه ! ويشهد التاريخ أن نور الدين كان صاحب يد بيضاء على صلاح الدين ، فلن ترضى أخلاق ذلك البطل العظيم بخسة الغدر ، أو خلق الاستبداد . ولكن نور الدين أسرف فى ظنه ، وباعد فى تخيلاته وحدسه !!

ها هو ذا يحس « النبض الصلاحى » بخطاب . ويستقبل البطل الخطاب بهدوء ويقرؤه ، ويجمع المجلس الاستشارى ، ويلقى عليهم الأمر ، فيختلف المجلس فى الرأى .

إن فريقا يرى أن « سلطان مصر » أصبح فى قوة تحميه من نور الدين فلا داعى للهادنة ، ولا داعى لقبول الضغط ، وفريق آخر يرى إهمال الرد وانتظار رد الفعل عند نور الدين .. كل ذلك وشيخ مهاب أثقل التفكير رأسه نفضه ، وحنكت التجارب منطقه فأصمته ، ساكت هادئ . وسكت المجلس ليستمعوا إليه ، وإذا بالشيخ يعلن : نحن مع نور الدين . وكأنه يقول : إننا قطران عربيان شقيقان لا يصح أن ندع للخلاف سلطانا علينا بحال وكانت كلمة الشيخ تستمد من الحكمة قوتها ، ومن الصمت الطويل هيبتها ومن أبوة صلاح الدين نفاذها وإرادتها . . واستمع صلاح الدين لنصيحة أبيه وأرسل إلى نور الدين « أمرك مطاع . وما أنا إلا صنيعة يدك ، وأحد جندك ، وأمر تستطع ، وقل نسمع ، وارسل أى نجاب من عندك تنفذ له كل ما يريد » !!

وهدأت ثورة نور الدين .

ولكن الشيطان رجع فهمس فى أذن نور الدين مرة أخرى ، وكان هذا الهمس أقوى مما مضى ! وكاد السلطان يستمع إليه فعلا ، فانوى أن يسير بجيش إلى صلاح الدين ! ولكن الأقدار العليا حكمت على نور الدين أن يهدأ ، ويهدأ طويلا ، هدوءا لا حركة بعده فى هذه الدنيا

هدوءا لا يعرف الأطماع ولا الاستغلال . . فمات نور الدين فى شوال سنة ٥٦٩ هـ — مايو ١١٧٤ م . وكانت وفاته تمهيدا عظيما لبطل عظيم ، ووحدة تامة كاملة بين مصر والشام فى السياسة والحرب والثقافة وفى البأساء والنعماء على السواء .

ولئن كنا نأخذ على « نور الدين » سوء ظنه بصلاح الدين ، فإننا نسجل إكبارنا وتقديرنا هذه المواقف الفنية الرائعة التى وقفها مع الإسلام والمسلمين ، ضد الغزاة من الأفرنج الغاصبين .

لم يكن نور الدين وحده ، بل كان والده من قبله سندا قويا للإسلام وقد انتزع « الرها » من يد الأفرنج فى قوة وبأس .

وكان هذا الانتزاع شرارة النار التى انقدحت فى صفوف الصليبيين فأغبت حماسهم ، وجمعت جموعهم ، وكانت الحملة الصليبية الثانية .

والحق أنها كانت حملة جبارة قاسية .. لقد تكونت جيوشها من انجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا . وكان ينفخ فى نارها القديس المشئوم « برناردوس » لاقدس الله سره ولا روحه .. وكانت هذه الحملة تسير كالموج المتدفق ، وكالسيل المنهمر ، بل كانت تسد الأفق .

هل تصدق أن عدد الجنود الذين ضمتهم هذه الجيوش بلغ نصف المليون ، رجالا وفرسانا .

وسار هؤلاء الفرسان والرجالة وهم يضمرون الشر والحقد الدفين ،

يحملهم على ذلك ثارات من الدم ، وحماقات العصبية . وقابل نور الدين هذا الجيش العرمرم بجيش أقل منه عددا ونظاما ودهاء ، ولكنه كان جيشا يوحد الله ولا يهاب سلطانا ، ينفعل بالعقيدة ولا يرهب موتا ، تقع عليه ضربات السيف فيظنها قبلة أصدقائه من الملائكة .

وفتح الموت الأحمر أبوابه كلها على مصاريعها للأفرنج ، وكأن الأرض تزلزلت تحت أقدامهم ، وكأن الجو أمطر وابلا من القنابل عليهم ، فاصمدوا ولاثبتوا ، بل تطايرت أشلاؤهم ، وتمزقت وحداتهم وأخذ تكبير المسلمين يشق عنان السماء ، ابتهاجا بالنصر .

وفى الوقت نفسه أخذوا يتعقبون فلول الأعداء فى كل مكان .

والعجيب أن سياسة « فرق تسد » هى مبدأ الفرنج من قديم ، فالوا فى أنفسهم بعد هزيمتهم النكراء : نحن انهزمنا لأننا قابلنا العرب مجتمعين فى مكان واحد . . أما هذه المرة فنذهب إلى حلب . ولقد كان فى حلب حينئذ نفس الفتى البطل الذى هزمهم وهو « نور الدين »

وما أسرع ما وصلت النجدات العربية إلى حلب مرة أخرى . وما أشد الهول الذى لاقوه فى هذه المعركة الثانية ، وما أكثر القتلى والأسرى الذين صادتهم السيوف العربية ، والفتيان الأماجد ، حتى ذكر التاريخ أن الصليبيين فقدوا ألفا وخمسمائة قتيل ، عدا الأسرى والجرحى .

وواصل هذا البطل الفتى غزوه للأفرنج واتجه ناحية الشمال ، فأخذ

ينتزع منهم حصنا حصنا ، ويهزمهم هزيمة هزيمة . وساعده على ذلك أنه تمكن من أسر القائد الصليبى الفاجر « جوسلين »

ولا تسأل عن هذا القائد مكرا ودهاء وسوء طوية ، ولذلك كان أسره طعنة قاصمة فى صفوف الأعداء ، وصاعقة جبارة على أسماعهم .

ويمكننا أن نقول : إن أسر هذا القائد كان هو المفتاح الذى فتح به نور الدين بقية القلاع والحصون التى كانت تحت إمرة الأفرنج فى ذلك الحين .

نذكر ذلك كتسجيل مشرف لتاريخ نور الدين البطل العظيم والفتى العربى الكريم .

ولقد أكمل البناء ، ورفع اللواء ، وأسس الدولة الكبرى من بعده خليفته وتلميذه النجيب : صلاح الدين .

تطورات

مات نور الدين !!

فانقلبت الأمور فى الشام ، وامتد تأثير هذا الحادث إلى مصر نفسها !

إن صلاح الدين يرقب الأحداث فى الشام ! والسياسة العسكرية قد ارتجت فى القطرين ! والموقف فى غاية الدقة ، ويجب أن يعالج بكل حذر وحكمة !!

إن نور الدين ترك غلاما صغيرا لايحسن سياسة الحكم ، ولايحسن إدارة الأمور !! فرفع الطامعون رءوسهم ، وتذاءب الأمراء وتنمروا كل منهم يريد الاستقلال بولايته ! وكل منهم يريد أن يغدر بالآخر ويستولى على سلطانه !

هذه التطورات كلها وصلاح الدين فى مصر يتلقى الأخبار ، وينتظر النتيجة ، ويرصد الحوادث ، ولكنه فجأة يتطور ويرى من الواجب أن يتدخل ، فالأمر يعنيه ، والشام ومصر يجب أن يتعاونا ، والأعداء الفرنج على الأبواب ينتهزون الفرص ، ويتربصون الدائرة ! فكيف السكوت إذا هاجموا الشام وملكوه . وتوالت الأفكار على صلاح الدين وحاول صلاح الدين أن يبرز أفكاره هذه إلى حيز الوجود ، ولكنه آثر الأناة والتمهل ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

ومع هذه الأناة ، فلامانع أن يترجم تلك الأفكار فى رسالة يبعث بها إلى حاكم بغداد ويقول فيها ، وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم فى قلعه ، وإلا ثبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهمم القادرين بالعقود آثمة ، وإنا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، .

وأول ما نلاحظه أن صلاح الدين أبرز نواياه الجميلة نحو الدفاع عن مجد العروبة ومحاولة إرجاع الأفرنج عن فلسطين !

ولكن هو وحده لايكفى ! فلابد أن يتجه إلى الشام ! ولكن كيف يتجه ؟ هل يتجه فاتحا أم يتجه مسالما ؟

ولكن رسالة من الشام ترد على صلاح الدين تستنجد به وتطلبه فى إلحاح .. وكم كانت فرحة صلاح الدين بهذه الدعوة ! إنها تحيى آماله ، وتجدد أشواقه . فما أسرع ما تأهب وما أسرع ما ولّى أخاه العادل على مصر وشؤونها . . ولكن الحكمة تريد من صلاح الدين أن يطمئن على ثغور البلاد ومداخلها ،

* * *

استجاب البطل لهذا الهاتف الحكيم ، فأخذ يسير على مهل . وما إن يمر على ثغر أو مدخل حتى يدقق فى تحصينه ، فلما اطمأن أسرع الخطا إلى القطر العربى الشقيق !!

ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين قبل أن يصل إلى الشام كان واضعا فى حسابه بلاد اليمن . وأنها يجب أن تكون تحت الإمرة الصلاحية فلم يجد بأسا من إرسال أخيه سيف الاسلام إلى هذه البلاد ، وفعلا استولى على عدن وزبيد وغيرهما من بلاد اليمن .

وبذلك كان صلاح الدين فى غاية الاطمئنان من ناحية الحصون والقلاع اليمنية ، وكذلك الثغور المصرية ، كدمياط والإسكندرية ، وكذلك بلاد النوبة جميعا ، كل هذا لكى يواجه الشام ببال واحد، وفؤاد مستريح . فلما جاءته الأنباء بأن كل ما أراده قد تم . . توكل على الله ودخل دمشق .

ها هو ذا قد وصل إلى دمشق فى يوم الاثنين أول ربيع الآخر ٥٧٠ هـ ٣٠ أكتوبر ١١٧٤ ، ولم يكد أهلها يعلمون بنبأ وصوله حتى خرجوا مهللين مكبرين ، وفتحت دمشق العربية أبوابها للسلطان العربى مرحبة مبتهجة . وخرج الجند والقواد والأهالى لاستقبال صلاح الدين ! وعبر قاضى القضاة عن شعور البلد وأهله بهذه العبارة السهلة العذبة التى وجهها إلى صلاح الدين وقال فيها : « طب نفسا . فالأمر أمرك والبلد بلدك »

ومن الإنصاف أن نذكر أن الضيف البطل لم يزده هذا الاستقبال إلا تواضعا ، ولم يدخل عليه غرورا أو كبرياء .

ابتهاج

فرح الشعب الدمشقى بقدوم القائد العربى ، ورأى فيه خلاصا من المحن التى تنتظر البلاد على أثر الفرقة التى قسمتها إلى ولايات ، وسخروا الحاكم الصغير تحت أهوائهم وأغراضهم ، وأصدر صلاح الدين منشورات يعلن فيها أنه ما قدم إلى الشام إلا لجمع الكلمة ، وتكوين جبهة متحدة ضد المحتل الغاصب المتربص لبلاد الشرق كل هوان وكل سوء !

ورأى صلاح الدين نفسه محتاجا إلى متحدث رسمى باسمه فاتخذ العماد الأصفهانى لهذا المنصب الخطير .

أعلن المتحدث الرسمى أن البطل العظيم سيسير إلى حماه ، ومع أن أسوار « حماه » كانت متينة إلا أن أهلها كانوا كراما ... فما وسعهم إلا أن يستقبلوا البطل بما يستحقه من حفاوة وإجلال ، وفتحت حماه أيضا أبوابها من غير قتال فى سنة ٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م .

وتوجه صلاح الدين إلى حمص وتسلمها كذلك . وهنا يذكر التاريخ أن بعض الولاة قاوم قليلا لمنافسة حاقدة . وأغراض غير شريفة ، وبالرغم من هذا الاشفاق وهذه المنافسة الحاقدة اتجه إليه صلاح الدين اتجاها مسالما بريئا من كل هوى ، لا يريد إلا الخير العام والصالح العام .. ورأى

هذا البعض أن الموقف وإقبال الناس بجانب صلاح الدين ، فأعطى التسليم إلى صلاح الدين !! وبذلك استقر الأمر لصلاح الدين فى دمشق وحمص وحماة وبعلبك .. وأكبر الفرحة أنه استقرار من غير مناوشة ولا قتال .

ورفرف « النسر الأحمر فى القماش الأصفر » ، وهو علم صلاح الدين على حد تعبير بعض المؤرخين ، على دمشق وحمص وحماة وذلك هو العلم الذى يريد القائد البطل أن يرفرف على ربوع الشام كلها ، كما رفرف على أنحاء مصر من قبل ، وكما سيرفرف على أرض فلسطين فيما بعد !

فلئن دعونا اليوم إلى « علم واحد » على أرض العروبة كلها ، فلقد سبقنا إلى الدعوة والتنفيذ « صلاح الدين » !

وسار « علم » الإصلاح إلى القلاع والحصون الباقية . وكم كان يحب البطل أن لا يكون فى هذه الفتوحات دم ، وأن تكون دعوته بيضاء ، وأن لا يهتز « علمه » فى يد المقاتلين .. ولكن البشرية لا تستغنى عن لغة القوة فى كثير من أحيانها .

هاهم الأعداء للخير يجمعون جموعهم يريدون أن ينقضوا على ذلك الفاتح الهادى عند « تل السلطان » ، ولكن بطلنا العظيم استطاع بتوفيق الله أن ينتصر وأن يملك الغنائم الوافرة « ومن السموم الناقعات دواء » .

وفرت فلول الأعداء أمام علم الإصلاح وقائد النصر .

ثم خضعت قلعة بزاعة ، ومنبج ، وعزاز ، ورفرف النسر الأحمر فوق هذه القلاع كلها شامخا عاليا يتحدى الأعداء ، ويطاول الزمن . كما ارتفع من قبل على دمشق وحماة وحمص ، ومدن كفر طاب ، والمعرة وكان صلاح الدين كلما فتح قلعة كأنما بنى لبنة فى صرح العروبة ، لأنه كان يدخر هذه الإمكانيات كلها لاستعداد طويل ، وجهاد مرير ، وراءه الكلمة العليا للحق وأهله ؛ والكلمة السفلى للباطل وجموعه .

مخاضة الأحزان

كثير من الأسماء لايعلل ، ولكن هذا الاسم جدير بالوقوف عنده بعض الزمن !

« مخاضة الأحزان » هذا ، لم يكن بحرا يخاض فيه ، ولا ترعة تجرى فيها المياه !

بل كان « حصنا » عظيما من الحصون التى بناها الأفرنج بأرض الشام

ولقد كان حصنا عظيما . شامخا عاليا . . أقامه الصليبيون أيام دولتهم التى أقاموها على هذه الأرض . يوم أن جعلوا عاصمتها بيت المقدس ، وأقاموا جوانحها فى طبرية وأنطاكية ، وبنوا حصونها ، ومنها « حصن مخاضة الأحزان » .

وإذاً ، فلقد كان هذا الحصن مقاما على أحزان وبؤس كأن العرب يخوضون فيها لغزارتها وسيلها .

ولكن الشام فى هذا الأوان تحيا فى أفراح ، وتواصل الأناشيد بالزغاريد ، مثلما فرحت وأنشدت وزغردت بعد إعلان الوحدة . . فهل يترك صلاح الدين هذا الحصن القائم وذلك السور الجاثم ؟

لا !

لابد من عمل إيجابى سريع .. لابد من إزالته .

ولكن إزالته تؤدى إلى اشتباك حربى !

فليكن !

وتحرك جيش صلاح الدين نحو هذا الحصن يرفع راية الجهـــاد ، ويدق طبول الحرب .

وتلقاه الأفرنج بقواته الغاشمة ، وجيوشه العديدة ، ودارت معركة حامية عام ٥٧٥ هـ ، ١١٧٩ م

وكان فى الجيش الأفرنجى كثير من فرسان المعبد ، والاسبتارية وكان فيها صاحب طبرية كذلك .

ولكن الجيوش الصليبية لم تقاوم طويلا هذه الجحافل الإسلامية العربية التى كانت تجيش قوة ونشاطا ، وشوقا إلى القتال ، تحت الراية الإسلامية العربية .

وفرت الفلول الصليبية ، ولم ينفعها حصنها ؛ لأنه حصن بنى على الظلم وأقيم على الاستبداد .

واستولى صلاح الدين على « مخاضة الأحزان » وسواه بالأرض ، ولم يبق له أثرا .

وكان هذا الانتصار مما شد أزر بطلنا العظيم ، وزاد فى جمع القلوب حوله ، والتفاف الناس به

حلب

كان الغلام الصغير الملقب بالملك الصـــالح قد أقام فى حلب وحصن قلاعها ، وأجمعت حاشيته المضللة على مقاومة صلاح الدين ، وصوروا هذا البطل لهذا الغلام صورة لاتتصل بالواقع من قريب ولامن بعيد .

لقد كانت هذه الحاشية أشبه بالاستعمار اليوم ، تهمس فى أذن هذا وهذا لتوغر صدره ، وتملأ قلبه بالأحقاد والأضغان ! وجمع الملك الصغير أهل حلب وخطب فيهم : « يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجىء إليكم ، كبيركم عندى بمنزلة الأب ، وشابكم عندى بمنزلة الأخ وصغيركم عندى بحل محل الولد ! قد عرفتم إحسان أبى إليكم ، ومحبته لكم ، وسيرته فيكم ، وأنا يتيمكم ، وأجهش بالبكاء !

وتصور شعبا عاطفيا يرى سلطانه يبكى ويدمع ، لقد هاج وماج وعزموا على الوقوف فى وجه صلاح الدين !

إن صلاح الدين واقف خارج البلد بجيشه الجرار يطلب وفدا من أهل البلد يريهم عزمه ، ويكشف لهم عن قصده ولكن : هيهات للهائج أن يسمع أو يجيب .

وليت حاشية الملك الصغير رضيت بهذه الجريمة فقط ، جريمة الوقيعة

بين بلد عربى وشعب عربى ! بل أرادوا أن يزيدوا الطين بلة فاستنجدوا بالأفرنج مرة ، وبالموصليين مرة ، وبطائفة الحشاشين مرة ، كل ذلك ليهزموا ذلك البطل الفاتح ويكسروا شوكته .

إن هذه الحاشية لا يهمها جمع الكلمة ، ولا يهمها تطهير البلاد ، لأن تطهير البلاد أول مايصيبهم هم ، وأول ما يقع على رءوسهم .. والواقع المر أن البلاد العربية لم تصب بسوء مثلما أصيبت من أمثال هؤلاء الحكام الخونة الذين لايقيمون للصالح العام وزنا .

ما الفائدة التى تعود على العروبة من هزيمة صلاح الدين ؟

إن هذا البطل لايريد غزوا ياقوم ، إنه لايريد اغتصابا ، إنه لايريد توسعا فى مناطق النفوذ !

إنما يسعى لتحرير العروبة من دنس الاحتلال ، وتطهير بيت المقدس من ظلم الاستعمار .

والله عز وجل الذى يعلم النوايا والطوايا علم صدق صلاح الدين فى عزمه فأعانه على هزيمة الأفرنج والموصليين والحشاشين .

دب الرعب فى قلب الملك الصغير وحاشيته ، واحتاروا فى أمرهم ، وانقلبت أفكارهم وأصبحوا لايدرون ما يفعلون !

ها هو ذا ناصر العروبة يحاصرهم مرة ومرة ، وفى كل مرة يمد إليهم يد الرجاء ، ويد الرفق .

وضعفت مقاومة الحاشية الفاسدة ، ورأت أن لاداعى للمقاومة .

تحدث يد التسليم لصلاح الدين على صلح يتم بين صـــلاح الدين وحاكم حلب .

وما أسرع ما بسط صلاح الدين يده طالبا الصلح ، فما أحب الصلح إلى قلب هذا الفتى العربى الكبير . ولكن الملك الصغير مات واستغل سيف الدين مع بعض الخونة هذه الفرصة ، وباغت صلاح الدين بمفاجأة قاسية ، وأراد أن يطعن صلاح الدين من الخلف ، وأرسل جنودا إلى مصر ليستولى عليها ، لولا أن مخابرات صلاح الدين كانت على يقظة تامة وما أسرع ما بادر صلاح الدين إلى مقاومة هذه الجنود عند تل السلطان ـــ كما ذكرنا ـــ وهزمهم هزيمة منكرة .

وتبع القائد المنتصر هذه الجنود المهزومة حتى وصلت إلى حلب وفتح الحصون المجاورة لها .. مثل إعزاز ومنبج . وبذلك عزل حلب عما حولها عزلا تاما .

وفى استخذاء وذلة تقدم صاحب حلب وأعوانه وفاوضوه فى الصلح مرة أخرى .

ومع نقض العهود ، وقلة الذمم .. قبل الزعيم العربى الصلح ، وقبل تسليمهم ووعدهم على أن يكونوا معه فى المستقبل ضد الصليبيين .

وكم كانت فرحة صلاح الدين حين صعد قلعة « حلب » تلكم القلعة الحصينة الرائعة .

والواقع أن تسليم حلب لصلاح الدين كان له أهمية عظمى من الناحية الحربية .

بل إن صلاح الدين قوى يقينه حينذاك بأنه أصبح الحاكم الحقيقى ، والسلطان العظيم .

والصليبيون أنفسهم اعتقدوا ما اعتقده البطل العظيم . وعلى قلعة حلب صدرت هذه الكلمة الرائعة من صلاح الدين « والله ماسررت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة »

ولكن السرور لن يتم فى هذه الحياة الدنيا . فبينا هو فرح مغتبط وإذا بالناعى ينعى له أخاه « تاج الملوك » ، واحتسب صلاح الدين أخاه عند ربه . فكلنا الموت وإنا لله .

وسعت رقعة صلاح الدين ، وكبرت دولته ، وقرب جدا أمل تحقيق الوحدة الكبرى . فقد شملت الوحدة حتى الآن شواطىء أفريقية الشمالية حتى طرابلس .. وقد ذكرنا قبل ذلك أنها شملت بلاد اليمن ومصر والنوبة والحجاز وأضيف إلى ذلك دمشق وحمص وحماه وما حولها .. ثم حلب .

فلا عجب أن يهتف المسلمون لصلاح الدين فى كل صباح ومســاء ، ولا غرو أن تخفق له الأفئدة والقلوب .

* * *

فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن حصن « آمد » وقع فى يد صلاح الدين بعد حصار طويل شاق ، فرحنا كثيرا وكثيرا .

واستولى صلاح الدين على جميع الذخائر التى كانت فى هذا الحصن المنيع .

* * *

ولا مانع أن نقضى هنا فترة مع الشعراء ، نسمع فيها فرحتهم بفتح هذه الحصون والقلاع :

قال الشاعر سعيد الحلبي فى فتح « آمد » :

رمى « آمدا » بالصافنات فأذعنت ... لاطاعة : آكامها وسورها
فما عز ناديها ولا اعتاض ثغرها ... ولاجاش طاميها ولا رد سورها
وأنزلت بالكره ابن تيسان محرجا ... كما أنزل الزرباء كرها قصيرها
نهضت لها حتى إذا انقاد صعبها ... تقضى على طول الشماس ثغورها
وملكت ما ملكت منها تحولا ... وكان قفيلا فى نداك كثيرها

وقال العماد فى فتح حمص :

ملكت فأسجح فما للبسلا ... د سواك مجير ومولى نصير
ويوم الفرنج إذا ما لقو ... ك عبوس يرغمهم قطرير
نهوضا إلى القدس يشفى العليل ... بفتح الفتوح وماذا عسير
سلوا الله تسهيل صعب الخطو ... ب فهو على كل شىء قدير
أنت تريق دماء الفرنج ... وعندهم لا تراق الخمور

وقال العماد فى فتح بعلبك :

بفتوح عمرك يفخر الإسلام ... وبنور نصرك تشرق الأيام

وبفتح قلعة بعلبك تهذبت ... هذى الممالك واستقام الشام
وبكى الحسود دما وثغر الشرعن ... فرح بنصرك للهدى بسام
فتح تسنى فى الصيام كأننا ... شكرا لما منح الإله صيام
من ذا رأى فى الصوم عيد سعادة ... حلت لنا والفطر فيه حرام
دم للعلا حتى يدوم نضالها ... واسلم يعز بنصرك الإسلام

* * *

وقال العماد فى فتح حلب :

وكأننى بالساحل الأقصى وقد ... ساحت بنحر دم الفرنج ساحه
فاعبر إلى القوم الفرات ليشربوا المو ... ت الأجلج ، فقد طما طفاحه
نجوا البلاد من البلاء بعدلكم ... فالظلم باد فى الجميع صراحه

وقال الشاعر السورى المصرى أبو الحسن فى فتح حصن « الداوية » وهو حصن المخاض :

* * *

بجدك أعطاف القنا تتعطف ... وبجد الأعادى دون مجدك يطرف
شهاب هدى فى ظلمة الشك ثاقب ... وسيف هدى فى طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه ... لموقف حق لايوازيه موقف
فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه ... رجال كآساد الشرى وهى تزحف
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة ... إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كما من أعاليه صليب وبيعة ... وشاد به دين حنيف ومصحف
أيسكن أوطان النبيين عصبة ... تمين لدى أيمانها وهى تحلف
فنصحكم والنصح فى الدين واجب ... ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وشهد المعركة أحد الشعراء تجم الدين العراقى فقال :

هنيئا صلاح الدين بالفتح والنصر ... ونيل الأمانى الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا ... وحسن ثنا يبقى إلى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفية والقنا ... سمو أبى لاينام على وتر
وصلت بها حقل المفاخر مثلما ... قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم ... وخضت سواد الليل وهو صوادم يجرى

* * *

وقد عرف الأفرنج بأسك فى الوغى ... وجرعتهم منه أمر من الصبر
وظنوا بناء الحصن صونا لملكهم ... فأصبح بالشعواء منتهك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر ، قطعت ... أناملها ، إلا على صفقة الخسر
هى الفتكة الغراء لازلت قائما ... بأمثالها الدين فى السر والجهر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة ... فما خلقوا إلا على شيمة الغدر

وقال العماد فى فتح حصن « منبج » :

نزولك فى منبج ... على الظفر المبهج
ونجحك فى المرتجى ... وفتحك للمرتجى
دليل على نجح ما ... تحاول أو ترتجى
أمورك فيها ترو ... م واضحة المنهج
وشانيك دامى الشؤو ... ن منك شقى شجى
ومن كان فى حصنه ... ومن قبل لم يخرج

يقال له ليس ذا ... بعشك ، قم فادرج
فعجـل عبور الفرا ... ت وأسر وسر وأدلج
عج نحو تلك البلا ... د وعن غيرها عرج
فحران والرقـان ... تاليتـا المنبـج

وقال ابن التعاويذى فى فتح « مرج عيون » :

إن كان دينك فى الصبابة دينى ... فقف المطى برملتى يبرين
كاد الأعادى أن يصيبك كيدها ... لو لم تكدك برأيها المتأفون
تخفى عداوتها وراء بشاشة ... فتشف عن نظر لها مشفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم ... أفضت إليك بسرها المخزون
كنوا وكم لك من كمين سعادة ... فى الغيب تظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم ... بالنحس طائرهم بمرج عيون

المعاهدة المشئومة

كان هم صلاح الدين من الرحلة الشامية توحيد القوى ، وجمع الكلمة ، ولم يكن يضمر سوءا أو شرا بأحد من الولاة المسلمين . فهو حين ذهب إلى الشام لم يذهب بقوة ضاربة . . . لم يكن معه سوى سبعمائة جندى فقط . . . هذا إلى أنه كان يستبقى على البلاد الولاة الذين كان يأنس لهم ، ويرى فيهم إعانته على غرضه الأعظم . وهو جهاد الأفرنج . .

وبينما صلاح الدين يحاصر بيروت ليحملها على التسليم بالأسطول المصرى وبالمنجنيقات الحربية . . إذا به يأتيه خبر يعكر صفوه ، ويكدر خاطره .

حاكم الموصل عقد معاهدة سرية مع الصليبيين ضد صلاح الدين .

إن الموصل هذه ذات موقع استيراتيجى هام ، وكان الواجب أن تكون تحت سلطان صلاح الدين . . أو على الأقل : يجب أن تكون سلما خالصا لا شر فيه ولا خطر من ورائه . . . فإذا بهؤلاء المواصلة يكهربون الجو فى هذا الوقت الحرج بمعاهدة مع الأعداء ، تجعل الخطر يحدق بصلاح الدين من كل جانب .

وفكر صلاح الدين طويلا ، وقدّر ودبر ، . . وكتب إلى خليفة بغداد يخبره الخبر . . ولكن خليفة بغداد لا يتحرك ولا يهتم كثيرا .

وكان أهم شروط هذه المعاهدة الموصلية الأفرنجية :

(١) يدفع الموصليون عشرة آلاف دينار للصليبيين .
(٢) يسلم الموصليون ثغور المسلمين للصليبيين .
(٣) إطلاق سراح الأسرى الصليبيين .

ولو تساءلنا : ماهو الغرض من وراء هذه المعاهدة ؟ يكون الجواب تفريق قوة صلاح الدين ، ثم الانقضاض عليه مرة واحدة .

ولا شك أنها كانت خطة محبوكة لهذا البطل الفاتح . .

ولكن الله العظيم لا ينسى أولياءه وعباده الصالحين . . هدى صلاح الدين إلى أن يرتب جيشا ويجعله فى دمشق ، وجيشا آخر على حدود فلسطين من ناحية مصر ، ويتحرك هو إلى الجزيرة .

ولقد قضت هذه الاستعدادات الهائلة فى وقت واحد على خطة الأعداء ، وجعلهم يفقدون صوابهم ، ولا يدرون ماذا يقولون أو ماذا يفعلون .

واستمر حصار صلاح الدين للموصل طويلا . . تبدأ مناوشات الحرب ثم تنتهى .

ولئن كان صلاح الدين لم ينته به الأمر هذه المرة إلى الاستيلاء على الموصل ، فيكفى أنه ألقى فى قلب حاكمها الرعب ، حتى جعله يستنجد

بمن حوله من الولاة ، ويسوق الرجاء تلو الرجاء فى أن يرحـل عنهم صلاح الدين ويتركهم وشأنهم . .

إن هذا فى نظرى يعتبر انتصارا كبيرا فى إحباط المؤامرة التى كانت تكمن فى ثنايا هذه المعاهدة المشئومة .

وتم رحيل صلاح الدين عن الموصل فى شعبان سنة ٥٧٨هـ - ديسمبر سنة ١١٨٢ م .

* * *

هـذا ماصنعه صلاح الدين . استجاب لرجاء حاكم الموصل ، ونسى أو تناسى له — وهو الحاكم المسلم — مواقف الموصلى وغدره ...

ولكن حاكم الموصل — عز الدين — وكان الأليق أن يسمى « ذل الدين » ، لم يرضه هذا الانتصار أثناء الحصار ... فأخذ يلعب مع الأفرنج مرة ومع الولاة الذين حوله مرة أخرى . .

إن المعاهدة الأولى فشلت . فليعقد معاهدة أخرى . والخائن لايعدم وجود خونة معه . . فهذه سنة الطبيعة ، والطيور على أشكالها تقع ، كما يقال .

واجتمع شاه أرمن ، وصاحب أرزن ، وصاحب ماردين وغيرهم ، على صلاح الدين ، يدبرون له ، « مقلبا » أو يحيكون له مؤامرة ، وكان هذا المقلب أو تلكم المؤامرة فى شكل « معاهدة » أو « حلف » .

ولكن القلب الكبير الذى استقبل به صلاح الدين المعاهدة الأولى ،

هو نفس القلب الذى استقبل به هذه المعاهدة التى حاكها المتآمرون الخونة ، ضعاف القلوب ، خفاف الأفئدة .

وأى ضعف وأى خفة بعد أن تذكروا لهذه المعاهدة وشروطها عندما سمعوا أن صلاح الدين توجه إليهم .

ولكن صلاح الدين هذه المرة لم يقبل أن يخدع ولا أن يرجع دون أن يتخذ موقفا إيجابيا .

لقد بدا من حاكم الموصل دائما أنه ينوى الشر بالمسلمين ، وأنه يعمل على هدم صلاح الدين .

وسفير « عز الدين » هو الوحيد من بين سفراء الدول الإسلامية الذى حاول تعكير صفو هذا الحلف الإسلامى الخطير - كما سنذكر فيما بعد - وذلك كله جعل صلاح الدين يتشبث بتأديب هذا الحاكم الخائن اللعوب .

حاصر الموصل ، وطال الحصار ، وقلق الحاكم ، وجبن الخائن أمام المقاومة ، فأرسل النساء ، يطلبن من صلاح الدين أن يرفع الحصار ، وبكى النساء ، وكاد يبكى صلاح الدين ، وكاد يرضى وكاد يجيب المطلب ، كما أجاب من قبل .

ولكنه تذكر الغدر المتواصل ، واللؤم الفاجر ، فآثر أن يستمر فى حصاره بعض الوقت .

بل قطع صلاح الدين دجلة عن الموصل ، ليزداد ألم الأهالى فى الموصل .

ولعلك تتساءل : لماذا يلجأ صلاح الدين إلى قطع الماء عن أهل

الموصل ، وهو عمل لم تعهده من صلاح الدين المسلم ، ولا من صلاح الدين الفتى ، ولا من صلاح الدين القائد . والجواب فى بساطة أن أهل الموصل بدءوا الحرب عن طريق المناوشة ، فأراد القائد الفتى أن يؤدبهم لينقطعوا عن القتال ، ولا يضطروه إلى النزال الحربى ، والاشتباك المسلح .

وقد نجحت هذه الطريقة ، فتوقف الموصليون عن القتال ، وأذعن حاكم الموصل لصلاح الدين ، ولم يحرك ساكنا بعد .

والحق أن الموصل كانت من الأهمية بمكان عظيم .

وتم الإذعان عن طريق صلح ، على شرط أن يكون الدعاء فى الخطبة لصلاح الدين ، وأن تسك النقود باسمه .

وكان الصلح الموصلى الصلاحى أكبر طعنة فى المعاهدة الزنكية الأفرنجية .

وتم لصلاح الدين بعد ذلك جيش قوى من جميع هـذه الأراضى والجهات .

فبذل كثيرا من جهده فى سبيل تنظيمه ، وتكوينه ، وتوحيد صفوفه استعدادا للمعركة الكبرى ، وكلمة الفصل بين الحق والباطل .

نجـاة

زادت أسهم صلاح الدين فى الشام يوما بعديوم ! وكثرت جموعه ، وتضاعف أنصاره . ولكن قوما يريدون مقابلته على انفراد ، فلما لم يتمكنوا من ذلك طلب كل واحد منهم على حدة مقابلة انفرادية ، وصلاح الدين يرحب بكل من يقابله ، فهو سليم القلب ، حسن الطوية ، لايضمر شرا ، ولا يكتم سوءا .

فسمح بهذه المقابلة عن طيب خاطر ، ولكن الذى دخل كان متقمصا روح الشيطان ، فأراد أن يئد المروءة فى بطلها ، وعلا بسيفه وضرب صلاح الدين ضربة كادت تطيح برأسه ، وتابع هذه الضربة ضربات أخرى من المجرم ومن معه من المتآمرين ! ! ولكن عناية الله أدركت صلاح الدين ، فالضربات كان أغلبها فى الدروع ، والجند تنبهوا لهؤلاء المغتالين فقبضوا عليهم ، ولاقوا حتفهم ، ونزلت قطرات الدم من صلاح الدين طاهرة نقية .

وأخـذ ينظر إليها فى فرحة وابتهاج ، إنه كان لايرهب الموت ولا يحرص على الحياة ، إن الموت فى سبيل الله ودينـه وأمته أسمى ما يتمناه ! !

ولقد كانت هذه المؤامرة سببا من أسباب جمع القلوب مرة أخرى على صلاح الدين ، والتفاف الناس حوله ، ورب ضارة نافعة .

وكتب القاضى الفاضل إلى البلاد يطمئنها برسائله الشائقة ، وقله السيال ! وجاء فى إحداها « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله حاصلة ، ولم ينل « صلاح الدين » إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها ، واندملت لساعتها ، وليس فى الأمر بحمد الله مايضيق صدرا ، ولا مايشغل سرا » .

وبهذه النجاة ازداد عزم « البطل » صلابة ، وازدادت الإرادة حزما وقوة ، وقرر أن قطرات الدم الباقية فى جسمه ، فداء للنصر المبين ، وقربان لجمع كلمة العرب والمسلمين .

ولم تكن هذه النجاة هى الأولى من نوعها ، فقد سبق فى مصر مثلها ، كما حدث كذلك من طائفة تسمى الطائفة الإسماعيلية وهى طائفة غريبة عجيبة ، اتخذت شيخا لها يسمى « سنان » ، ومكانها فى الاقليم الساحلى الواقع بين اللاذقية وطرابلس ؛ والذى يسمى « جبل لبنان » .

ووصفنا هذه الطائفة بالغرابة والعجب ، لأن شيخها كان يسيطر عليها سيطرة تامة ، ويستغلها استغلالا سيئا ويستبد بهم استبدادا لامثيل له !

لقد بلغ من طوعهم لأمره أنه لو أمر الرجل والرجال أن يرموا أنفسهم من فوق شواهق الجبال لفعلوا من غير تردد أو تلعثم !! وأمكن لهذه الطائفة أن تبنى لها فى هذا الإقليم قلاعا متعددة أطلقت عليها هذه

الأسماء « مصياف » ، القدموس ، الكهف ، الخوابى ، العلقة ، القلعة ، الرصافى ، المنيقة » .

ولو بحثنا عن مبادىء هذه الطائفة الغريبة العجيبة ، لوجدنا أنها ليست من القوامة بهذا الشكل العنيف ، وليست من المحاسن بحيث تصل إلى هذا التماسك القوى الجبار !! .

وأغلب ظنى أن الشر هو الذى ربط بينها ، والشر رباط فى النفوس المستعدة له مثل رباط الخير أو يزيد !

أوهمهم شيخهم أنه قادر على أشياء كثيرة ، وأن غيرهم من البشر عناصر فاسدة ، وأن ملتهم هى الملة المثلى ، وخدر أفكارهم وعقولهم ، وجعل لهم جنة وهمية ، وتارا شيطانية !!

ولعلك تتساءل : ماعلاقة هذه الطائفة بتاريخ صلاح الدين ، فاعلم أن هذه الطائفة بادأت صلاح الدين بالعدوان ، ودبرت له الاغتيال ، وحرصت على أن تكدر صفوه ، وتزلزل عرشه ، لولا صبر من البطل ، وإيمان فى قلبه . فشلت دونه كل المحاولات ، بجميع أشكالها !!

فاتجه إليها صلاح الدين بالحرب . هاهى القلاع الإسماعيلية تقع قلعة قلعة فى يد صلاح الدين ، ولكن واحدة لم تقع ، ولم تشأ الأقدار لها أن تقع ، هى قلعة « مصياف » ، لقد كان فى هذه القلعة شيخ الإسماعيلية ، ذلك الشيخ الذى أسر العقول ، واستولى على الأفكار بسحره وشعوذته .

وضربت المنجنيقات الصلاحية ، أو بعبارة العصر الحديث : أطلقت الدبابات قذائفها أسبوعا كاملا يكاد يكون متواليا ، فلم تؤثر أى أثر ، ولم تغير سير الحياة فى داخل القلعة ، بل أخذ أصحاب القلعة يغدون ويروحون

كأن لم يكن خارج السور ضرب ولا حصار .

وأخيرا رأى صلاح الدين أن يعقد صلحا ، أو طلب شيخ الإسماعيلية أن يعقد صلحا ، وتم ذلك الصلح على أحسن حال . واتخذ هذا الشيخ صلاح الدين بعد ذلك صديقا حميما ، واعترف به زعيما عظيما .

والحق أن هذه الطائفة أثبتت بطولة أى بطولة عند مقاومتها ، حتى خشى صلاح الدين بأسها ، وخاف بطشها .

نام صلاح الدين ليلة ومن حوله ألفا فارس يحرسونه ، ثم قام فوجد من حوله آنية فيها سكين مسمومة ورسالة تفيد أن إسماعيليا ملكه هذه الليلة ولكنه عفا عنه .

وهذه الحادثة المذكورة فى التاريخ تفيد إلى حد كبير كيف كان الإسماعيليون إقداما وعدم مبالاة .

ولكن الله سبحانه حفظه من شرهم ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

زواج

رفرف علم الإصلاح على ربوع الشام ، كما رفرف « النسر الأحمر فى القماش الأصفر » فوق القلوب !

لم يكن الرجال فقط يحبون صلاح الدين ، بل كان الشباب والأطفال والنساء يرون فيه البطل المنقذ ، والفاتح القدير ، والأمل الوحيد لإنقاذ البلاد من انقضاض الأفرنج !

وممن دعا إلى حب صلاح الدين والالتفاف حوله بإلحاح : زوجة نورالدين ، حاكم الشام الذى توفى وخلفه ابنه الملك الصغير والى على حلب وكم عارضت الأم ابنها فى وقوفه أمام صلاح الدين . وكثيرا ما قالت له : إنه خير من يمثل الجبهة المتحدة أمام الأفرنج .

فهل هناك مانع لو فكر البطل العظيم فى مكافأة هذه المرأة الشهمة ، وهذه البطلة المفكرة ، وهذه العبقرية النادرة !

ولكن ، بم يكافئها ؟

إنها لاتحب المال ، ولا تحب المظهر الكذاب !

إنها فقدت زوجا عظيما ، وإنسانا كريما !

فلتتزوج بطلا أعظم ، وإنسانا أكرم .

وأعلن المتحدث الرسمى زواج البطل صلاح الدين من زوجة نور الدين

• • •

لقد آن لهذا الجسم المكدود أن يستريح قليلا ! ولهذا العقل الجبار أن يفكر هادئا ، ولهذه الآمال الواسعة أن تأخذ هدنة !

ولكن حياة الجهاد والكفاح فرضت نفسها على صلاح الدين فرضا فلم يتمتع بزواج ، ولم يشعر بدف. !

إنه لم يخلق للقصور ، وإنما خلق للخيام

إنه لم يولد للطيبات ، وإنما ولد للفاجآت .

إنه لم يكن من عشاق المجد الهزيل ، وإنما كان من هواة الكفاح الطويل .

ومشق عاصمة الإسلام

هذه المدينة الخالدة شهدت ألوانا من الفتوة والبطولة ، شهدت الفتوحات الإسلامية الأولى ، وشهدت عصر العظماء فى الدولة الأموية ، وشهدت الثورة الكبرى فى عهد صلاح الدين .

وبشاء الله تعالى أن تكون دمشق الآن هى العاصمة الثانية للجمهورية العربية المتحدة .

وأعتقد أن الوحدة حين ابتدأت من دمشق ، ودمشق بالذات ، فذلك لسر عظيم .

إن هذه المدينة عرفت بالعروبة الأصيلة ، وبالأحرار العظماء . . وذات تاريخ ماجد ، وماض عريق .

فليجعلها صلاح الدين « عاصمة الإسلام » ، وليدع سفراء الدول لحضور أعظم حلف ، وأكبر مؤتمر فى القرن السادس الهجرى .

لقد آن لصلاح الدين أن يكون اتحاده الأكبر ، وأن يكتل القوى ، ويجمع الجموع .

آن أن يكون الجبهة الإسلامية القوية .

آن أن تبرز قوة الشرق ، وأن تخرج إلى الوجود هذه الدولة الكبرى

آن أن يقف الأفرنج عند حدهم ، وأن يردهم على أعقابهم خاسئين مدحورين .

آن أن يشعر الكوكب الأرضى بالعقيدة الحية تتحرك فوقه نورا تضيء العالمين ، وتارا تحرق الظالمين .

واجتمع السفراء وقرروا بالإجماع ما عدا سفير الموصل الاعتراف بزعامة صلاح الدين على هذا الاتحاد العربى الإسلامى .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا : إن هذا الاجتماع كان ثوريا وسياسيا فى وقت واحد .

ثوريا ، لأن صلاح الدين كان ينفعل بالثورة العارمة ، وكانت تتمثل فيه الحرقة الشديدة ، والألم الممض ، لهذا العدو الصليبى الرابض .

ولابد للثورة من فرامل تضبطها ، وهذا هو الجانب السياسى فى هذا الاجتماع .

ورسمت الخطوط العريضة لنهضة صلاح الدين ، وأبان هو فى وضوح وبساطة عن أهدافه وغاياته نحو الشرق العربى المسلم ، وعن نياته نحو الأفرنج المستعمر الغاصب .

ولكن حكومة بغـــداد حين ذاك كانت لاتنظر إلى هذا الحلف الإسلامى الخطير بعين الارتياح .

إنها كانت لا تستريح إلى عظمة صلاح الدين . إنها كانت ترى فيه القوة التى لاتحب الضعف ، والرجل الحر الذى لايقبل التحكم ، والسيد الشجاع الذى لايحب الضيم .

وإنى لأشاركك الدهشة من هذا التحفظ الغريب من حكومة بغداد نحو خطوات صلاح الدين ؛ وهو البطل الذى كان يكن للخليفة كل تقدير وإكبار .

والخلاصة أن « دمشق » الخالدة انبثق منها نور هـذا الحلف ، كما انبثقت منها العزمة الكبرى ، وكما خرجت منها الدفعة الأولى لمحاربة الصليبيين .

وكان هذا الحلف جامعا لدول الإسلام فى ذلك الأوان .

وما دام صلاح الدين قد ملك زمام البلاد فى دمشق والشام كلها .. قلعة قلعة ، وحصنا حصنا .

وما دام قد استولى على القلوب هناك كما استولى عليها فى أنحاء الأمة العربية كلها بدافع الحب الخالص ، والعاطفة الإسلامية المتدفقة .

وما دام قد جاءته الزعامة العربية الإسلامية « منقادة تجر أذيالها »

فلابد إذا من الخطوة الثالثة .. الانقضاض على الصليبيين وتطهير فلسطين . ذلك الجزء العربى الخالد الذى شع منه وحى الأنبياء ، وكان مجمع الرسالات ليلة الإسراء .

فإلى الفتى المجاهد الذى جمع الكلمة ، وحرر فلسطين لنرى ماذا فعلته الحروب الصليبيـــة بالشرق العربى المسلم ، وكيف قاومها فتانا الشهم الكريم ، وقضى عليها قضاء مبرما .

الحروب الصليبية

لماذا كانت هذه الحروب المسماة « بالحروب الصليبية » ؟

بين الغرب والشرق عداء مستحكم . ليس اليوم فقط ، وإنما هو من قرون مضت ، ودهور انقضت .

وكان هذا العداء يصل إلى حد « الجنون » فى كثير من الأحايين . وما كانت هذه الحروب إلا نزعة من نزعات ذلك الجنون المستعر . أرادت للشرق الذل والهوان ، والتأخر والانقراض .

فأى وسيلة تملك العقول الغربية للوصول إلى هذه الغاية المسمومة ؟ عبأت جميع القوى ، وأذاعت بجميع اللغات ، ودعت فى شدة وإلحاح إلى أن « القدس » يجب أن يكون فى أيديهم ، وأن أمة الشرق يجب أن تزول من الوجود . لماذا ؟ لأنهم أشاعوا كذبا وزورا ، أن قبر « المسيح » قد أهانه الشرقيون . فلقد وقف البابا « أوربانوس » فى مدينة « كليرمونت » بفرنسا عام ١٠٩٥ يعلن أنه يجب على الغرب أن يهب على بكرة أبيه ، لا ليأخذ بالثأر من الإهانات التى لحقت النوع الإنسانى فى الشرق فحسب ، « بل لرد تلك الإهانات التى ألحقوها بالرب هناك » .

وبهذا المنطق الدعى الكذاب أهب البابا المشاعر وجمع الأمم وجيش الجيوش .

ولو تساءلنا : أى إهانات ألحقها الشرقيون أو المسلمون ، لانجد لهذا الكلام ظلا من واقع ، أو جانبا من حقيقة .

وإذا ؛ فلا مناص من إبراز الحقيقة السافرة من شن هذه الحروب وذلك ما أعلنه البابا نفسه فى آخر خطابه « وليست حروبنا هذه لاكتساب مدينة واحدة ، هى مدينة القدس ، بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها ، لأنها غنية بخزائنها التى لا تحصى » . ثم وجه الخطاب لمن حوله :

« فأنقذوا بيت المقدس حجة ، واستخلصوا الأرض المقدسة من أيدى الكفار ، أى « المسلمين » المختلسين ، وامتلكوها أنتم خالصة لكم من دون الشرقيين ، فهذه الأرض كما قالت التوراة « تفيض لبنا وعسلا » .

وأكد هذه الحقيقة المؤرخ الانجليزى ستيفن سن إذ قال « ولم تكن الحروب الصليبية إلا حملات عسكرية لتأسيس قوة لاتينية فى سوريا وفلسطين » .

واشتعلت الأمم الاستعمارية بهذه الأفكار الوحشية وقررت فى نفسها أمرا .

* * *

لو دققنا النظر فى تاريخ الأوربيين وقت ذاك ، بل ووقتنا هذا لانجدهم على اتصال بالمسيحية كما يزعمون . إن الدين كان عندهم مطلق انفعالات ، ومطلق ترنيمات لا أكثر ولا أقل . ولكن مع هذا كله ، فأى دعوة من أجل الدين تجد صدى ، ولا تعدم مجيبين !

عرف ذلك الدعاة المضللون حين دعوا إلى استعمار الشرق ، فأثاروا العاطفة الدينية ، واستغلوها استغلالا شائنا ، جعل قارتى آسيا وأوربا تشهدان أعنف الحروب وحشية فى القرون الوسطى .

وإذا كنا اليوم نشاهد تحت سمعنا وبصرنا : كيف يقلب الاستعمار الأخيار رأسا على عقب ، وكيف يغيرونها وكيف يزيفون التاريخ ، فلا عجب إذا علمنا أنهم هم الذين أشاعوا أن حرب صلاح الدين كانت حروبا تعصبية لدين على دين ، كأننا نحن الذين بدأنا العدوان ، واقترفنا هذه الجرائم والآثام .

إنى أؤكد أن الغربيين استخدموا لغة الدفاع عن الدين استخداما ، وهذا ما أكده ويؤكده دائما بعض المؤرخين .

فقد ذكروا أن من أسباب الحروب الصليبية محاولة جمع كلمة الغرب الذى كان قد تفرق حين ذاك ، والدليل على هذا ما ذكره الدعاة إلى هذه الحروب فى خطبهم التى جاء فيها :

« لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، أفيقوا ، فقد وجدتم اليوم داعيا إليها . إنكم إن انتصرتم على عدوكم « الشرق » كانت لكم ممالك الشرق ميراثا . هذا هو الوقت الذى تبرهنون فيه على أن فيكم قوة وعزما وبطشا وشجاعة » .

نعم : لقد كانت أوربا فى هذا الزمان ، قد ألم بها بلاء الجهل ، وفرقتها أنانية زعمائها ، فأرادوا التئام الشمل . وتوحيد الصفوف ،

فلا يجدون أفعل ولا أقوى أثرا من استشارته ضد الشرق والشرقيين . وتجاهل العقل الاستعماري الأفرنجي أن العرب أجمعين كانوا يعيشون في حب ووئام ، وصفاء وإخاء ، على نسق هذه المعاهدة العربية الإسلامية التي أمضاها عمر بن الخطاب مع أهل إيلياء ، وحاميتها :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمهم وبريئهم ، وسائر ملتهم . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار واحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء أحد معهم من اليهود » . وبذلك اعتبر المسلمون إخوانهم أهل الكتاب جزءا منهم ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . وقد أقر القرآن ورسول الاسلام من قبل هذه السياسة ، وجعل لها جلال المبادىء والقوانين . قال سبحانه : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »

وأعلن رسول الانسانية أن « من قاتل ذميا فهو خصمه يوم القيامة »

وهذه وصية الخليفة الأول أبي بكر للقائد الأعلى للجيش « أن لا يخون ولا يغدر ، ولا يغل ، ولا يمثل ، ولا يقتل رسولا ، ولا يهدم منزلا ولا يناازل عزلا ، ولا يهيج معتزلا ، ولا يمس عابدا متبتلا »

وقد راعت الحكومات العربية هذه الوصايا وهذه الأوامر ورحبت

بإخوانهم المسيحيين خير ترحيب ، حتى وصل الأمر في عهد المعز لدين الله إلى أنه استوزر عيسى بن نسطور المسيحي . وفي عام ٥٢٩ هـ استوزر بهرام .

فأي سماحة بعد هذه السماحة يريدها الغرب ، وأي ألفة ومودة أكثر من هذه الألفة والمودة يريدها الاستعماريون ؟

إننا لا نبالغ إذا قلنا : إن الإخاء والوفاء كانا بين العرب في الشرق أكثرهما كانا بين الغربيين أنفسهم ، ولكنها الكراهية الدفينة ، والعقلية الاستعمارية ، ولكنه الحقد الأعمى ، يقلب الحقائق ويعكس الأوضاع .

* * *

ومما شجع الغربيين على هذه الحروب في تلك الأيام ما رأوه من تفكك المجتمع العربي حينذاك .

فمصر الفاطمية كانت تقاسي أهوالا وشدائد من تضعضع سلطانها واضمحلال كلمتها - كما ذكرنا - وكانت الثورات الداخلية قد طحنتها ، والمنازعات بين الأتراك والمغاربة قد أثرت في قوتها ، وكانت المجاعات والأوبئة أكثرما تغشاها في العهد الفاطمي ، وكانت الاغتيالات لا تنتهي للوزراء حتى تبدأ من جديد ، وكذلك كانت الحال للخلافة العباسية في الشرق الأوسط حيث انتشرت الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة ، وأدت إلى انتشار الفوضى والانحلال ، وأصبح السلب والنهب في بغداد جهارا نهارا . وشاع الشغب بين الترك والديلم ، وعمت

الارتباكات بلاد الشام . خصوصا حين كرر حسان بن الجراح الطائى غاراته على سوريا وحلب ، وبذلك خاضت بلاد العروبة كثيرا من الحروب الدفاعية مما أوهن الكلمة ، وفرق الصفوف .

هذا إلى الثورات الدموية التى كانت قائمة فى أفريقيا وصقلية والأندلس فى عهد المعز بن باديس الصنهاجى .

على هذه الحال من الضعف كان المجتمع العربى والإسلامى قبل نشوب الحروب الصليبية .

فلم تكن هناك فرصة أسنح من هذه الفرصة ، ولا ظروف أكثر مواتاة من هذه الظروف .

ولم تكن الحملات الاستعمارية فى عهد صلاح الدين هى الأولى من نوعها ، كما أنها لم تكن الأخيرة كذلك . فقد سبقتها من قبل حملة استعمارية من الدرجة الأولى ، تكونت من كتائب شعبية بقيادة بطرس الناسك ، وقد اخترقت أوربا الوسطى زاحفة نحو هدفها المرسوم .

ولما وصلوا إلى القسطنطينية أرغمهم الأمبراطور البيزنطى على تحويل اتجاههم . فعبروا البسفور ، وواصلوا المسير حتى وصلوا إلى أنطاكية ، ثم احتلوا بيت المقدس . وكونوا لهم هناك عدة إمارات لاتينية :

١ — إمارة الرها ٢ — إمارة أنطاكية .
٣ — مملكة بيت المقدس ٤ — إمارة طرابلس .

ولقد كانت هذه الحملات من الفرنسيين والانجليز والألمان والنمسويين والبولونيين ، واقترفوا فى طريقهم من حملات الإرهاب والعسف ما شاء لهم استبدادهم وهواهم وحاصروا القدس من جهاتها الأربع ، وكان عددهم ثلاثمائة ألف ، وكان فى القدس أحد الولاة الفاطميين ، ولم تكن البلاد قادرة على صد تيار هذه الحملة الغاشمة ، فتغلبت ودخلت الأرض المقدسة .

وهناك حكموا على كل عربى بالموت ، وارتكبوا من المنكرات أفظع ما ارتكبه فاتح مستبد ، وغاز وحشى !

* * *

وفى زمن « بلدوين الأول » ١١٠٠ — ١١١٨ م أصبحت القدس عاصمة المملكة اللاتينية التى تمتد من بيروت إلى العقبة . وكان لها فى ميناء العقبة أسطول ، وكانت تجبى الضرائب من القوافل التى تسير بين سوريا ومصر والحجاز . والتاريخ يثبت أن الأمن كان فى هذا العهد مفقودا خصوصا فى الطريق التى تصل أريحا بالقدس ! فما أكثر ما انتشر قطّاع الطرق ، وما أكثر ما كان النهب والقتل .

أما عن الأخلاق فقد انحطت إلى درجة لا تطاق ، وفرضت الضرائب الباهظة على السكان ، مما جعلهم فى درجة الغلمان ! وأما الحكم فقد كان قائما على نظام الاقطاع ، والاستبداد ، والظلم ، والإرهاق .

* * *

هذه هى قصة الحروب الصليبية ، ولها قصص أخرى واعتداءات

أخرى من يوم صلاح الدين إلى وقتنا هذا ، وما عدوان الدول الأوربية على بورسعيد والجزائر وكينيا عنا ببعيد .

فلئن كانت الأمم الغربية تجمع اليوم لتكتسحنا وتحاول القضاء على أقواتنا وسيادتنا وحريتنا ، فهي بعينها التي تجمعت من قبل لسحق العروبة والعرب ، وللقضاء على إسلامنا وحضارتنا وتراثنا .

ولكن ربك بالمرصاد ، يقيض للدين من يحميه وللأمم من يحييها

فكان صلاح الدين في القومة الاستعمارية الأولى ، وكانت الأمة العربية الناهضة الآن بشعوبها الحرة ، وعزماتها القوية هي التي تقاوم الغرب الآن .

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون

فلسطين

القدس

القدس من أول نشأتها عربية صميمة .

بناها أول ما بناها « يبوسيون » نشأوا فى الجزيرة العربية وترعرعوا فى أنحائها ، ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية ، فاستوطنوا هذه الديار ، وكان ذلك حوالى ٣٠٠٠ قبل الميلاد .

وكان من ملوك هؤلاء « سالم اليبوسى » . فلقد زاد هذا فى بنيانها وشيد على الأكمة الجنوبية المعروفة فى هذه الأيام « بجبل صهيون » برجا بقصد الدفاع عن المدينة ، ولذلك كانت تعرف باسمها الكنعانى « أوروسالم »

وبالرغم من احتلال الفراعنة ١٤٧٩ ق م ، وإسرائيل ١٠٤٩ ق م والأشوريين ٧٣٠ ق م والبابليين ٥٩٩ ق م ، وبالرغم من توافد عهود الفرس ٥٣٨ ق م ، واليونان ٣٣٢ ق م ، والرومان ٦٣ ق م ، والبيزنطيين ٣٢٠ م . .

بالرغم من هذه الاحتلالات المتوالية ، والعهود المتعددة ، عاد إلى القدس عروبتها فى عام ١٥ هـ ٦٣٦ م .

فى تلكم الأيام تعربت القدس وازدهت بأعلام العروبة من جديد .

ولقد كان العرب فى عهد الفاروق عمر بن الخطاب مدفوعين إلى فتح القدس واسترجاعها لأسباب عديدة :

(١) الذكريات الدينية المقدسة .

(٢) حماية أرض العروبة ! فبلاد القدس تعتبر العرق النابض ، والقلب الخفاق . وأرض العروبة كلها فى خطر إذا لم تكن النجوم الشمالية كلها فى أمان .

ويصور هذه الأهمية الاستيراتيجية كلمة الإمام على « وسط الأرضين أرض بيت المقدس ، وأرفع الأرض إلى السماء كلها بيت المقدس » ويحدثنا رسول الإنسانية عن مدائن من الجنة ، فيذكر : مكة ، والمدينة وبيت المقدس ، ودمشق . .

وسار العرب الفاتحون إلى إيلياء ، وإلى المدن الفلسطينية ، ترعاهم عناية الله ، وتؤيدهم بركات السماء .

واستطاع الفاروق أن يدخل الأرض المقدسة ويستقبله أهلها استقبالا رائعاً وكان أول عمل عمله عمر بن الخطاب أن زار « كنيسة القيامة » وحانت الصلاة وهو فى هذا المكان فصلاها بجوار الكنيسة ، ثم زار الهيكل ، وكان الهيكل فى حالة خراب ، فراح يحفن التراب وينحضه بكفيه ، وحذا العرب الفاتحون حذوه . ثم تجول الفاروق فى شوارع المدينة المقدسة وفى أسواقها .

ثم رجع إلى الجزيرة العربية بعد أن رفع راية العروبة فوق القدس ، وجعلها ترفرف ماتشاء تحت الشمس .

وما زالت هذه الراية ترفرف وتعلو فى عهد بنى أمية ٦٤١ م وبنى العباس ٧٥٠ م وبنى طولون ٨٧٨ م وبنى الإخشيد ٩٣٨ م والفاطميين ٩٦٦ م والأتراك السلجوقيين ١٠٧٢ م .

ما زالت هذه الراية ترفرف وتعلو خفاقة حتى احتلها الأفرنج المستعمرون عام ١٠٩٩ .

وكان الهدف الأول من هذه الحملات الاستعمارية الغاشمة التخلص من الثقافة العربية ، والحضارة الشرقية ، والقضاء على كلمة الإسلام فى أرضها وأمتها . . يضاف إلى ذلك أسباب تجارية ونشر اللغة اللاتينية فى أرض فلسطين .

أين تقع

تقع القدس بين البحر الميت من الشرق ، والبحر الأبيض المتوسط من الغرب ، تبعد عن الأول ١٨ ميلا ، وعن الثانى ٣٢ ميلا . وهى مرتفعة نحو ٣٨٠٠ قدما عن سطح البحر الميت . . ٢٥٠٠ قدما عن سطح البحر الأبيض المتوسط !!

وتمتاز بطقس جميل ، وجو صاف ، وهواء عليل ، يهب عليها من البحر مايلطف حرها فى الصيف ويبرد ليلها ، وربيعها جميل ، وخريفها

معتدل ، وشتاؤها فقط هو الذى يكون باردا جدا لدرجة أن الثلوج قد تجتاح بعض أحيائها هناك أحيانا .

وهى مدينة جبلية قائمة على تلال وآكام كثيرة :

(١) موريا وهى الأكمة التى يقوم عليها الحرم المقدس !!

(٢) أوفل ، وهو السفح المطل على قرية سلوان من ناحية الحرم

(٣) صهيون ، ويقوم عليه حى النبى داود .

(٤) بيترينا ، وهو التل الممتد من باب حطة إلى باب العامود .

(٥) جبل الزيتون : شرق المدينة وهو من الناحية الحربية بمثابة الروح من الجسد .

(٦) جبل المشارف : شمالى المدينة ، وعليه تقوم الآن الجامعة العبرية والمستشفى اليهودى .

(٧) الفطون : جنوبى المدينة ، وعليه دير سمعان .

(٨) المكبر ، إلى الشرق من محطة السكة الحديد ، يفصل بينه وبين جبل الزيتون واد يعرف بوادى سلوان . وبينه وبين جبل صهيون واد يعرف بوادى الربابة .

هذه هى المدينة التى جاهد من أجلها المسلمون العرب فى كل زمان ومكان ، والتى جعلها صلاح الدين قبلته المنشودة فى محراب التحرير ، ومواكب التطهير .

اجتماع الكواكب

أشاع الفلكيون أن ساعة الحرب قد اقتربت بين الجيوش العربية وبين الجيوش الأفرنجية الغاصبة ، وبنوا هذه الإشاعات على أن الكواكب السيارة الخمسة اجتمعت فى برج « الميزان » مع الشمس والقمر . ومعنى هذا ـ فى نظرهم ـ أن حربا ستحدث ، وأن ريحا عظيمة ستهب .

وأحدثت هذه الإشاعات رعبا وفزعا وخوفا ووجلا .

وتجرأ أحد الفلكيين ، ودخل على صلاح الدين ، وقال له . ستفتح القدس وتذهب عينك ، ولكن صلاح الدين فاجأه بهذه القولة التاريخية:

« رضيت أن أفتحه وأعمى »

وهنا نرجع بذاكرتنا إلى الخطاب الذى كان قد أرسله صلاح الدين إلى الخليفة منذ سنوات ، ورسم فيه آماله بإيجاد جبهة عربية إسلامية واسترداد بيت المقدس من غاصبيه ، ورد الأفرنج المستعمرين على أعقابهم خائبين مدحورين .

لذلك لم تهز صلاح الدين هذه « الفقـــاعة » التنجيمية ، ولم يبالغ صلاح الدين حين رضى بالعمى فى سبيل الفتح . إن هذا الرضا لم يكن أفلاطونيا ، بل كان تعبيرا صادرا عن حقيقة نفسه ، وهواه القلبي .

إن صلاح الدين لم يكن يهدف إلى وحدة سوريا ومصر فحسب ، بل كان يهدف إلى وجود دولة عربية ذات قوة شرقية مناهضة للغرب بجميع جيوشه ودوله وأساطيله ، ومع هذا الحرص وهذه الرغبة لم يشأ صلاح الدين أن يكون البادىء بالعدوان .

لقد كان بينه وبين الأعداء هدنة ، فلينتظر ما تأتى به الأقدار ، فجاءته الأقدار بما يهوى ويحب .

قرر « أرناط » أحد الزعماء الأفرنج أن ينقض الهدنة ويتحدى كلة العرب والإسلام ، فاستولى على قوافل الحجاج وسواكبهم وأخذ كل ما فيها من رجال ومتاع ، متحديا بذلك الشعور العام للعروبة جمعاء ، وبالغ أرناط فى تحديه ورفض احتجاج صلاح الدين ولم يأبه له وقال : « من اليوم لن أدع قافلة من قوافل الحجاج تمر إلا نهبتها »

وعاش صلاح الدين مع هؤلاء الأسرى يئن لأنينهم ، ويبكى لبكائهم ولم يسعه إلا أن يقسم « ليقتلن أرناط إذا ما وقع فى يده يوما ما » وقد كان .

قبل المعركة

كان الجو مهيأ كل التهيأ لتحقيق أمانى « صلاح الدين » وللاشتباك فى حرب فاصلة .

وقبل أن نخوض معمعة هذه الحرب ، ينبغى أن نقضى فترة من الزمن مع الدكتور نظير سعداوى فى كتابه « التاريخ الحربى المصرى » حيث يلقى أضواء على الفروق بين الجيش العربى والجيش الأفرنجى فيقول : « ولابد من الإشارة إلى الخصائص الاستيراتيجية الصليبية والإسلامية قبل الدخول فى تفاصيل النزاع الحربى بينهما .

فالمعروف أولا أن الصليبيين من البداية حتى النهاية لم يحتلوا الأجزاء الإسلامية الداخلية ، بل كان كل ما قاموا به هو احتلال الأجزاء التى تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج ، وعلى سلسلة القلاع الضخمة لضمان الحماية والدفاع ضد أى هجوم .

فاستيراتيجيتهم تنحصر فى الحصون للحماية والدفاع ، وفى البحر للتموين والإمداد .

ومن ثم لم تكن مصادفة أن صارت الصحراء فى الجنوب هى الحد

الفاصل لمملكة بيت المقدس الممتدة من البحر المتوسط إلى البحر الميت ، وجعل الصليبيون على طول هذا الحد الجنوبى سلسلة من القلاع الحصينة المبتدئة من زعيرة على الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية ثم كرك ومنتريال وسامدا والكرمل وبيت جبريل وداورن . وخلف هذا الخط الأول كانت قلاع بوفورت وشنتوف وموفورا وصفد والقسطل وغيرها ، وهى تحمى وديان بحيرة طبرية .

أما فى الشمال فتوجد حصون عكا ، وحصن الكرك التى تقع غربى حمص وبازين التى تشرف على سلسلة جبال لبنان ، وتقع هذه الجبال جميعاً على بعد يوم سفر على الدابة من بعضها .

ولم يعد بعض هذه القلاع أن يكون أكثر من قرية مسورة بحائط ذى برج مربع . هذا فيما عدا المدن الساحلية الكبيرة : أنطاكية وطراباس وعكا وصور وترسوس والمرقب وبيروت وعسقلان ويافا وغيرها ، وهى أطراف القوى الصليبية من ناحية الغرب والبحر ، ويقابلها من ناحية البر مرج عيون وباتياس وجسر يعقوب وبيسان وطبريا وغيرها .

وامتازت هذه الحدود الصليبية بأن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الغربية والشرقية من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ووسائل دفاعية ، فحصن مرقب مثلا كان بداخله حمامات وصهريج للمياه ومخازن مؤنة تكفى الحامية خمس سنوات ، ومساكن كبيرة . ارتفاعها ٢٩ مترا من طابقين ، تسع ألف رجل ، على حين وسع حصن الكرك مركز القيادة

الداوية خمسة آلاف مقاتل ، ومطيرة لألف حصان ، وبلغت مساقة سور أنطاكية اثنى عشر ميلا ، كما بلغ عدد أبراج هذا السور مائة وستة وثلاثين برجا ، وعدد شرفاته أربعا وعشرين ألفا على قول ابن الجيعان .

أما تنظيم هذه الأوضاع الاستيراتيجية فألزمت ملكة بيت المقدس كل إقطاع كبير فى جغرافيتها بتقديم مائة فارس للخدمة الحربية ، أما الإقطاعات الصغيرة مثل مارون فكان نصابها خمسة عشر فارسا ، والأصغر منها مثل دارون فارسين فقط ! ويبدو أن هذه الأنصبة تفاوتت بتفاوت الإقطاعات ، فكان نصاب بيت المقدس ٤٠ فارسا ، وعكا ٨٠ فارسا ، فضلا عن تقديم عدد معين من الرجالة عددهم خمسمائة رجل من عكا ، وخمسون رجلا من كل من قيصرية وحيفا ، ويضاف إلى تلك القوات جميعها ما يأتى إليها من أوربا فى كل ربيع وخريف .

أما الخصائص الاستيراتيجية الصلاحية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقا وغربا فى قواعد آمنة للتموين فى سرعة ، ففى الشمال حلب وحماة ، وإلى الشرق منها الموصل وقلاع الجزيرة ، وكلها مدن حصينة ، وفى الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب والنوبة واليمن .

ثم إن القاهرة غـــدت منذ غادرها صلاح الدين ١١٨٢ م قاعدة

لتدريب الجند وإعداده وتموينه ، وإليها ترسل الجرحى والأسرى ، ومنها يطلب الامداد ، لسد النقص فى ميادين القتال ، على حين غدت دمشق منذ استقر بها صلاح الدين عام ١١٨٢ مسرحا لنشاط سياسى وساحة لحركات عسكرية مستمرة ، ومعملا لدراسة الخطط الحربية . وآية ذلك قول صلاح الدين فى وصف دمشق وقت ذاك : « بأنه مايتى له دار إلا هى حتى يقضى الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين » .

وكان يشرف على الجيش العربى ديوان الجيش ، ويذكر المقريزى أنه لم تكن مؤلفات دقيقة فى ذكر الأعداد الحقيقية لفرسان الجيش الصلاحى ورجاله » .

ولكن المتأكد أن الرجل العربى كان يساوى رجالا من الأفرنج ، وأن الوحدة والتماسك فى الصفوف كانت قوية ، وأن صلاح الدين كان يضفى على الجيش من مهابته مهابة ، ومن قوته قوة .

فلئن كان الجيش الأفرنجى يمتاز بكثرة العدد ، فإن الجيش العربى كان يمتاز بأن فيه قهرا وسطوة ، وإصرارا وعزما ، لأنه كان يعتقد أنه سيدفع ظلما ، وسيرد طغيانا .

كل هذه المعانى كانت تتفاعل فى كل جندى عربى ، وكانت تتعمق فى نفسه وضميره ، فكانت تهون الدنيا فى نظره لتحيا كلمة الإسلام

* * *

واكتملت الهيئة الحربية للأفرنج فى عكا ، واجتمع ريموند والملك

جمى وحزبه بعدفرقة بينهما ، وبعدخلافات كثيرة متشعبة استبد أرناط بأن يهاجم الأفرنج صلاح الدين ، فلمفاجأة عنصر قوى أصيل فى الحرب «والنار لا يضرها كثرة الحطب» على حد تعبير أرناط. وكأنما كان يسعى أرناط إلى حتفه بظلفه .

وتحركت الجيوش الأفرنجية الاستعمارية فى حوالى عشرين ألفا .

أما صلاح الدين فقد أعد عدته ، وجهز جيشه ، واستقبل أسطوله ، واجتمع مع قيادته العامة ، وهيئة أركان حربه ، فى حزم وبساطة ،

ووضعوا الخطط العسكرية التفصيلية ، وأخذوا يرقبون حركات العدو ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

موقعة حطين

تجمعت الجيوش العربية الإسلامية استعداداً للجهاد ، ورغبة فى النصر أو الاستشهاد . وفى طريق التجمع حدثت مناوشات جزئية ، جعلت المسلمين يأملون فى النصر ، وجعلت الجيوش الصليبية تزداد اهتماما وتقديرا للموقف .

وقررت هيئة أركان حرب صلاح الدين خوض المعركة ، فاستعرض صلاح الدين جيشه ونظمه تنظيما حربيا عظيما ، وأوقف كل فرقة فى المكان الذى يناسبها ، ثم انتظر حتى صلى الجمعة ليزداد مدده المادى بالامدادات الروحية السماوية . وتحركت الجيوش صباح السبت ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ ، ٢٧ يونيو ١١٨٧ م ، وعبرت نهر الأردن جنوبى بحيرة طبرية .

وكان الجيش الاستعمارى الأفرنجى معسكرا فى صفوريا وكان صلاح الدين يريد أن يزحزحه عن مكانه لتكون المعركة مكشوفة ، واستطاع صلاح الدين بمناوشاته ومكائده الحربية أن يصل إلى ما يريد .

إن « طبرية » هى الاحتكاك المباشر فى الموضوع ، وهى الزناد التى تكمن فيها النار كما يقولون . فليتجسه صلاح الدين إليها . . وما هى

إلا جولة أوجولتان حتى وقعت طبرية فى يد الجيوش العربية الإسلامية وهنا اختل توازن الأفرنج فقرروا الهجوم .

ولما قربوا من صلاح الدين نظر إليهم فى ابتسام وهدوء وقال : « جاءنا طلبنا » وكانت كلمة الأفرنج مجمعة على أمرين :

١ ــ الحيلولة بين جيش صلاح الدين وبقيـــة جيوشه الموزعة فى المنطقة .

٢ ــ محاولة الحجز بينه وبين الماء لأن المعركة فى أرض قفراء .

وإذا كان المثل يقول : من حفر حفرة وقع فيها ، فقد وقع الأفرنج فى شر أعمالهم . وصدق الله العظيم « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله »

إن صلاح الدين كان يحتاط للأمر حيطة عظيمة ، فكيف تغيب عنه مواضع الخطر ؛ وكيف يهمل موارد المياه ؟!

وفى هذا يقول الدكتور البيلى : « فى هذا اليوم تحرك جيش الأفرنج من صفوريا قاصدا طبرية لتخليصها ـ من يد المسلمين ـ وما درى أن السلطان وجنده قد أضرموا النار فيها . فأصبحت رمادا تذروه الرياح

حاول الأفرنج فى هجومهم هذا أن ينفـذوا الخطط التى رسموها لأنفسهم ويقطعوا الطريق على السلطان وجيشه ، ويستولوا على ينابيع المياه .

فكان من أمرهم أنهم كانوا كلما تقـدموا خطوة وقعوا تحت نيران

« صلاح الدين » فلم يثبتوا ، وأحاطت بهم الفرق الصلاحية ، وأخذت تسوقهم إلى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى .

أضف إلى هذا ما لاقاه الأفرنج من الحامية إلى المياه فى ميدان القتال ، وقد كانوا أرادوا الاستيلاء عليها حتى تلحق هذه الشدة بجيش السلطان ، وتضاعفت هذه الشدة بتسلط أشعة الشمس عليهم فى هذا اليوم الذى يقع فى شهر هو أشد شهور الصيف حرا ، لا شجر يظلهم ، ولا ماء يروى ظمأهم ، فكان هذا كله أشد عليهم من جيوش المسلمين ، فاضطروا إلى النكوص على أعقابهم ليدبروا أمرا آخر ، ولم يجد المسلمون حينئذ بدا من أن يثبتوا فى مراكزهم ، حتى يروا ماذا يفعله عدوهم .

أمر قواد المسلمين جنودهم بالعودة إلى خيامهم ، حتى يصبحوا ، ولكن الروح المعنوية فى جيش الأفرنج كانت تولى الأدبار ، إذ قضى القوم ليلتهم هذه فى ظلام حالك ملؤه اليأس والقنوط .

أما حال المسلمين عندئذ ، فقد يلمسها الباحث ، إذ قضوا هذه الليلة والأمل يشجعهم على منازلة الأفرنج ، واعتقاد الانتصار يقوى عزائمهم ويبعثهم على التهليل والتكبير والاستعانة بالله على الجهاد .

أصبح الصباح ، وانتشرت حرارة الشمس المحرقة ، فأعانت المسلمين على الفتك بهؤلاء العطاش ، وهجم السلطان على الأفرنج هجوما عنيفا فرق ركبانهم عن مشاتهم ، وتقهقرت فلولهم إلى التلال ، تلال حطين

من شدة ما لاقوا من التعب والعطش الشديدين . . وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ، فلم يمكنهم المسلمون من ذلك . وكل ما قاموا به هو نصب خيمة الملك . وفى مكان هذه الخيمة حصلت الموقعة الفاصلة . فقد هجم المسلمون على الأفرنج الملتفين حول ملكهم ، والذين استبسلوا فتمكنوا من رد المسلمين مرتين ! إلا أنهم عجزوا فى المرة الثالثة عن المقاومة . فما لبثت خيمة الملك أن تداعت ، فانقض المسلمون عليها وأخذوا ما كان فيها » (١)

ومن حق القارىء أن يقرأ وصف هذه المعركة الحاسمة لا بلغة فيها تزويق . بل بلغة ابن شداد نفسه الذى عاصرها وكان المؤرخ الحربى لها قال: « ضاق الخناق بالقوم هذا وهم سائرون ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسهم أنهم فى غد زوار القبور ، ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قِرنه يصطدم حتى لم يبق إلا الظفر ، ووقع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرى فى ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والأمور الجسيمة ما لم يحك عمن تقدم . وبات كل فريق فى سلاحه ، ينتظر خصمه فى كل ساعة ، وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض . حتى كان صباح السبت الذى يورك فيه ، فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة أن المكسورة بينهما مدحورة الجنبين

(١) حياة صلاح الدين

معدومة النفس ، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى . وكان الله قد نصر المؤمنين ويسره ، وأجراه على وفق ما قدره ، فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد . فألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين .

وأحاط أهل الإسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب وأطلقوا عليهم السهام ، وعاملوهم بالصفاح ، وانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد ، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له : تل حطين ، وهى قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء . فضايقهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حواليهم النيران وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر ، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل ، فأسر مقدموهم ، وقتل البافون وأسروا .

وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفرى والبرنس أرناط وأخو الملك ، وابن الهنفرى وابن صاحب طبرية ، ومقدم الداوية وصاحب جبيل ، ومقدم الاسبتار ، وكان الواحد العظيم منهم يخفر فى الأسر خوفا من القتل .

فأما البرنس أرناط ، فقد كان السلطان نذر أنه إذا ظفر به قتله لأنه غدر بقوم كثيرين طلبوا الصلح فلم يعطه لهم ، وتهدد قوافل الحجاج ، وسب النبى صلى الله عليه وسلم . فأرقده السلطان على ما قال ، وقال له :

ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل ، ثم ضربه ضربة قضت عليه وعجل عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار »(١).

* * *

انتهت معركة حطين ، وكان النصر فيها حاسما لصلاح الدين ، فلقد هزم فيها الأفرنج الغاصبون المحتلون هزيمة منكرة ؛ ماديا ومعنويا

لقد عاض جيش الإسلام والعروبة المعركة وهو أحسن ما يكون نظاما ، وأقوى ما يكون عدة ؛ وأمهر ما يكون قيادة .

ولقد كان اختيار أرض المعركة موفقا من الناحية الحربية غاية التوفيق

ومن الناحية المعنوية ، كانت هزيمتهم شنيعة ، إذ فقدوا جميع مراكزهم التي استولوا عليها وجميع القادة والملوك .

وبذلك كانت هذه الموقعة ضربة قاضية كل القضاء على فلول الأفرنج واستولى صلاح الدين على طبرية فى غير تعب ولا مشقة ، ولكن هذا الانتصار الحاسم لم يزد صلاح الدين إلا تمسكا بالأخلاق ورغبة فى حسن الأحدوثة ، فطلبت منه الأميرة صاحبة طبرية الأمان لها ، فأعطاها الأمان لها ولأولادها وأموالها ، واطمأن بنفسه على سلامتها وحسن وفادتها وتلك مكارم الأخلاق . ووفاء الإسلام ، وإخلاص العرب حتى للأعداء .

---

(١) النوادر السلطانية للقاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد

فتح بيت المقدس

كان لانتصار صلاح الدين على الأفرنج فى حطين دوى هائل فى أنحاء فلسطين كلها . ولم يقنع صلاح الدين بهذا الانتصار الرائع ، فقد كان حلمه تطهير فلسطين كلها ، وكل شبر فيها من الغزاة العتاة .

وقعت فى يده طبرية . ثم اتجه إلى عكا . وبعد مقاومة من أهلها استولى عليها ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وكان دخول المسلمين عكا يوافق سنة ٥٨٣ هـ ، ١١٨٧ م ، واتجهت فرقة من الجيش إلى يافا لمجاهدتها وملكتها ، كما ذهبت فرق أخرى إلى الناصرة وقيسارية ، وحيفا وصفورية والشقيف والقوله ، فملكوها فى يسر وسهولة ، وكذلك استولى الجيش على نابلس فى بساطة ، وعند ما وصل الأمر إلى تبنين ، وجدها المسلمون فى حماية ومنعة ، فاستنجدوا بصلاح الدين ، وما أن وصله الخبر حتى هب مسرعا إلى الحرب ، ولقد كان تحركه وحده كفيلا بانحلال عزائم الأفرنج ، فما أن وصل حول تبنين ، حتى أمر حاكم المدينة الأفرنجى الأهالى بالرحيل استعدادا للتسليم . ثم وصل الجيش إلى بيروت وتسلمها بعد حصار دام ثمانية أيام .

وما أجمل ما كنت تنظر إلى الجيش الفاتح ، جيش العروبة والإسلام

وهو يسير إلى الحرب بالرأس المنتصر ، والفكر الراجح ، والقدم الثابت ، يفتح حصنا بعد حصن ، وبلدا بعد بلد ، وقلعة بعد قلعة . وما أجمل ما كنت ترى ملوك الأفرنج مصفدين فى السلاسل ، مقيدين فى الأغلال ، يسيرهم صلاح الدين معه ليستعين بهم على أن يكون الفتح من غير إراقة دماء ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فما أكره إراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح إلى كل من تحيا إليه عروق الإنسانية ، وضمير الإسلام وما أعظم ما اجتمعت هاتان الصفتان فى صلاح الدين !

وبقيت مدينة عسقلان ، وهى المدينة التى تعتبر الطريق إلى بيت المقدس ؛ فليتجه الجيش إليها إذا ، ولتوجه نحوها الهمم والعزائم .

وفعلا توجه الجيش فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ ، أغسطس ١١٨٧ م ولكن المدينة قاومت وامتنعت أول الأمر ، وأرسل السلطان إليهم ليسلموا ، وجاء بملكهم الأسير وعرض عليهم أن يفكه إن سلموا المدينة فلم يجيبوه ، فأمر صلاح الدين بهجوم شامل ، فما لبثت أن فتحت أبوابها ودخلها الجند الأبطال ، وانتهز الجيش هذه الفرصة فاستولى على غزة ومدن الخليل وبيت لحم .

* * *

وهنا تحركت المشاعر نحو بيت المقدس مهبط الأنبياء ومسرى النبى العربى الهاشمى ذلك البيت الذى يحتل المكانة الأولى بعد المسجد الحرام والمسجد النبوى عند المسلمين ، ويحتل مكانة كبيرة كذلك عند مسيحيى الشرق على الاطلاق .

لقد جاء الأفرنج واحتلوا هذه البقعة الطاهرة العزيزة الغالية فى حملة وحملة وحملة — كما ذكرنا — ولقد ساعدهم على ذلك تفكك الدول العربية حينذاك ، ووجود الفرقة الشاسعة بين الخلافات المتداعية . ولكن الله عز وجل رحيم بعباده ، غيور على دينه ، ناصر الحق مادام وراء الحق رجال مؤمنون .

وإذا ، فقد آن للجيش العربى المسلم أن ينال مناه ، وأن يسترد حقوقه ، وأن يدخل بيت المقدس ، ويقيم فيه شعائر الله ، ولكن : كيف الدخول؟ إن صلاح الدين يريد أن لا يمس مدينة القدس بسوء ، إنه يعرف قيمتها التاريخية ، إنه يدرك مدى مالها من ذكريات غاليات فى قلوب المسلمين والمسيحيين جميعا .

ما أسمى ما كان ينوبه صلاح الدين . لقد كتب إلى الأفرنج « إنى أعتقد أن فى القدس بيت الله المقدس ، وليس فى عزمى أن أتعرض لبيت الله بأذى الحصار أو ضرر الهجوم » .

وكان يرمى من وراء ذلك أن يتم الفتح ، كما تم فى عهد الفاروق عمر بن الخطاب . ولكن : أبى الأفرنج أن يسالموا أو يقدروا قيمة ما قدرها . إنهم لا يعترفون بالمقدسات وإن تظاهروا أنهم حماتها وأنهم وفدوا لنصرتها .

إن موقفهم هذا وعدم تسليمهم أكبر دليل على أكذوبتهم المضحكة فى كل زمان ومكان ! يقولون : إننا حماة الدين وهم يحمون كل شىء .

إلا الدين ، ويقولون : إننا حماة الاستقلال ، وهم يطبقون كل شيء إلا سياسة الاستقلال .

واضطر صلاح الدين إلى الهجوم الحربي وهو في غاية الأسى ، بعد أن عرض عليهم كل طرق السلام فأبوا .

ومن الطريف هنا أن نذكر آخر طريقة لجأ إليها صلاح الدين في سبيل السلام : كان معه أحد القواد السابقين للأفرنج أسيرا عنده ، وكان اسمه « بليان » ، فقال لصلاح الدين : ائذن لي ليلة واحدة أستخرج أهلي وأولادي من القدس قبل أن تفتحوها . وأذن له ، ودخل بليان القدس ولكنه لم يخرج منها . ولم يكن هذا أول عهد ينقضه الأفرنج ، ولن يكون آخر نقض لهم . إن تاريخهم سلسلة متصلة من هذه النقوض والخدع .

لقد رأى بليان أن الناس قد تجمعوا حوله ، وأنهم قد أسلموه القيادة فأطعمه ذلك في النصر ، وزين له الشيطان فعله .

مكث صلاح الدين خمسة أيام .. يطوف ويطوف ويفكر ويقدر ، كيف يبدأ الهجوم . خصوصا وقد بلغه أن الافرنج عمقوا الخنادق ، ونصبوا المنجنيقات ، وحصنوا السور ، واستعدوا للمعركة الفاصلة . واستقر رأي صلاح الدين أن ينصب منجنيقا في الناحية الشمالية ، ولكنه آثر الانتظار !! . إنه لم يسترح ضميره للبدء بالقتال ، وإذا بالفرنجة يسمحون للفرصة أن تسنح ، حتى داورية منهم خرجت من مدينة

القدس استحدى شعور المسلمين وتستفزهم ، وكان هذا بدء المعركة .

قاومت فرقة من جيش صلاح الدين هذه الداورية وأرغمتها على الدخول إلى المدينة ، وذاق المسلمون لذة الانتصار ، فأبوا الرجوع عن أماكنهم ، وصدرت أوامر القيادة بالاستماتة في القتال ، ودب في الأفرنج الفزع ، وسرت في جيش صلاح الدين القوة .

كل طائفة استبسلت . رماة المنجنيق صوبوا فأذاقتهم داخل المدينة فدائيون آخرون يردمون الخنادق ، فرقة ثالثة تنقب السور ، بقية الجيش يقاتل على قدم وساق ، جماعة تشعل نارا وهمية ليملأ الجودعانا صلاح الدين يدير المعركة بقلب الأسد ، وحيلة الأريب . وعلت السيوف وانخفضت ، وثار النقع ، وامتلأ الجودعانا وغبارا ، ورأى الأفرنج أنهم ليسوا أمام قوة عادية .. فقرروا التسليم ، وأرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون منه الأمان !

ومرة أخرى يخرج « بليان » القائد الخائن إلى صلاح الدين يطلب الأمان على شروط ، فيبتسم صلاح الدين : هل لمدينة وقعت في الأسر أن تطلب شروطا ؟ ولكن مراوغة الثعالبة من الفرنج لا تنتهي .

فقال « بليان » : إن لم تجبنا إلى الأمان ضربنا الصخرة وقتلنا الأبناء وضربنا الديار وقتلنا أسرى المسلمين فأعطاهم الأمان على أن يخرجوا من الديار في مدى أربعين يوما ، وعلى أن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة ، والولد اثنين . ومن لم يستطع فهو أسير .

ويذكر لنا ابن الأثير وأبو شامة وأبو الفدا أن صلاح الدين دخل بيت المقدس فى ليلة ٢٧ رجب ، وهى ليلة المعراج عند أغلب العلماء ، وكانت هذه مصادفة من الأقدار ، وكم للأقدار من مصادفات عظيمات

ولنا أن نزهو ونفخر عندما نقرأ هذا التاريخ أو نسطره ، ولكن صلاح الدين لم يزه ولم يفتخر . بل سجد لله شكرا هو ومن معه ، يعترفون أمام الله سبحانه بالفضل ، ويقرون له بالحمد والثناء .

ولا يمكن للمؤرخ أن يمر هنا دون أن يعرج على ذلك الخلق الإنسانى الرفيع الذى عامل به صلاح الدين الأسرى من الأفرنج .

لقد طلب أخوه منه أن يطلق سراح ألف قربة إلى الله ففعل ، ثم ألف ففعل ، ثم ألف ففعل . ثم قال : آن لصلاح الدين أن يقدم هو قربة إلى الله ، فأمر مناديه أن ينادى : كل من كان أسيرا يطلق .. فإذا أصغينا إلى هذه الأخلاق بكاءه الشديد حينما سمع بكاء النساء من الفرنج على أزواجهن وأولادهن فأطلقهم لهن وحمل على راحتهن . علمنا أننا أمام إنسان يفيض رحمة وشفقة وحنانا ، وذلك هو النصر الحقيق العظيم .

• • •

وإذا ذكرنا تاريخنا الأبيض . فيجب أن لا ننسى تاريخ الأفرنج الأسود . لقد ذكر المؤرخ الأفرنجى ميشود كثيرا من فظائع الأفرنج عندما دخلوا القدس . قال: «كان المسلمون يقتلون فى الشوارع والبيوت

ولم يكن القدس من ملجأ يلجأ إليه . وكان يفر بعض القوم من الذبح فيلقى بنفسه من فوق الأسوار ، وكان يمشى الفرنج المنتصرون على آكام من الموتى المسلمين . وقد أحرق بعضهم وهم أحياء . وذهب فى هذا الوقت نحو سبعين ألفا من المسلمين بلاذنب ولا إثم .

هذه الصفحة السوداء نضيفها إلى الصفحات السود التى عاملنا بها الغرب من سالف الزمان ، وقديم الأيام .

ولا يلهينا هذا عن فرحة النصر ، وعن تقدير هذه الفتوح :

هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده ... صيدا ، وماضعفوا يوما وماهانوا

• • •

وما أحرى بنا أن ننظر إلى الأفق البعيد من زاوية الإيمان بالله . ما أحرانا أن نرفع رأسنا ونهمس فى أذن الزمان بهذا الرجاء الحبيب الجميل ، استخلاص القدس من يد اليهود ، كما استخلصها صلاح الدين من يد الفرنج .

إن النهضة العربية اليوم على قدم وساق . إن الأمة العربية المتحررة فى طريقها إلى صنع المعجزة كما صنعها صلاح الدين .

أقول الأمة العربية ، ولا أقول الدول العربية ، لأنى مؤمن أن الزمن كفيل بوحدتها جميعا ، فهذه إرادة الله وإرادة الشعوب ، والشعوب إرادة لا تقهر ، وعزيمة لا تهزم .

وجلس صلاح الدين فى خيمته ذات الأوتار المشدودة ، وأمر بالمسجد الأقصى أن يرجع إليه منبره العظيم ، وأن تقام الشعائر الدينية فى البلاد ، وأن تقام الصلوات شكرا لله ، وأن يكتب الكتاب إلى جميع البلاد العربية والإسلامية بأن بيت المقدس رجع إلى أهله ، وأن الفرنجة قد ارتدوا على أعقابهم خاسئين .

وحق للمسلمين أن يفرحوا ويبتهجوا ، وحق لصلاح الدين أن يبكى من شدة البهجة ، وحق للتهليل والتكبير أن يعلوا فى الآفاق ، وحق للشعراء أن يسجلوا قصائدهم ، ويسطروا ما جادت به قرائحهم ، وحق لنا أن نقرأ شيئا من هذا الشعر الحربى المنتصر :

قال الشاعر الحلبى فى موقعة « حطين » :

أترى مناما ما بعين أبصر ... القدس يفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم ... ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمر الإمام الأطهر
نثر ونظم طعنه وضرابه ... فالرمح ينثر والمهند ينظر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو
ن خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فإن خطبت له ... فيها السيوف فكل هام منبر

• • •

وقال الشاعر النابلسى :

بمثل ذا الفتح لا والله ماحكيت ... فى سالف الدهر أخبار ولا سير
حنين به حانه هلك المشركين فيا ... لله طيب العشايا منه والبكر
الآن قرت جنوب فى مضاجعها ... ونام من لم يزل حلفا له السهر
يابهجة القدس إذ أضحى به علم ... الاسلام من بعد طى وهو منتشر
يانور مسجده الأقصى وقد رفعت ... بعد الصليب به الآيات والسور

• • •

وقال شوقى بعد أن عاش بخياله فى موقعة حطين :

يعرف الدين من صلاح ويدرى ... من هو المسجدان والإسراء
إن حصنه الذى كان حصنا ... وحماه الذى به الاحتماء
يوم سار الصليب والحاملوه ... ومشى الغرب قومه والنساء
بنفوس تحول فيها الأمانى ... وقلوب تثور فيها الدماء
يضمرون الدمار للحق والنا ... س ودين الذين بالحق جاءوا
ويهذون بالتلاوة والصلبا ... ن ما شاد بالقنا البناء
فتلقتهم عزائم صدق ... نص للدين بينهن هباء
مزقت جمعهم كل أرض ... مثلما مزق الظلام الضياء
وسلبت أمر الملوك فردته ... وما فيه للرعايا رجاء

• • •

وقال أبو الحسن على ابن الساعاتى :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرت عيون المؤمنينا
وهان بك الصليب وكان قدما ... يعز على الموالى أن يهونا
وما طبرية إلا هدى ... ترفع عن أكف اللامسينا
قمت حتى رأت كفا فلانت ... وغاية كل قاس أن يلينا
قضيت فريضة الإسلام منها ... وصدقت الأمانى والظنونا
تهز عواطف القدس ابتهاجا ... وترضى عنك مكة والحجونا
لقد جردت عزما ناصريا ... يحدث عن سناه طور سينا
فكنت كيوسف الصديق حقا ... له هوت الكواكب ساجدينا

صدى الانتصارات

أخى العربى فى كل مكان :

علمت فيما سبق أن فلسطين تحررت من الأفرنج المحتل ، وعلمت أن بيت المقدس رجع إلى أهله ، وعلمت أن صلاح الدين قد انتصر انتصارا باهرا ساحقا ؟ فماذا كان موقف الفرنج من هذه الانتصارات ؟

لقد دقت قيامته ، وتزعزعت أركانه ، مثلما تقوم قيامتهم ، وتتزعزع أركانهم اليوم لميلاد « جمهوريتنا العربية المتحدة » .

ويكفى فى تصوير ضخامة ماحصل عند أعداء العروبة من فزع أن كتب الإمبراطور فردريك إلى صلاح الدين يقول له : إما أن ترجع إلينا ما استولت عليه — أى فلسطين وما جاورها — وإما أن نخوض حربا ضدك !! وليس المهم خوض الحرب ، بل المهم أن نعلم أن فردريك هدده بقيام ٢٧ دولة ضده ، وهذا عدا الإنجليز والفرنسيين ، فهؤلاء لهم استعدادهم الخاص ، وقتالهم ودهاؤهم ، وسيشتركون فى الحرب على انفراد .

ولكن صلاح الدين رد برسالة فيها حزم وحكمة قال فيها مخاطبا فردريك ودوله : « فى قدرة البشر وحدهم مواجهتكم ، وعلى التركمان

إيادتكم ، وإذا دعونا الفلاحين حاربوكم بشجاعة » .

وفى هذا الرد ما يجعلنا نزداد إعجابا بصلاح الدين فى تمسكه بالحق ودفاعه عنه فى شجاعة وبسالة . أليس هو القائل حين كان مريضا وأراد أن يحارب وقد قيل له : انتظر حتى يشفيك الله ، « إنى أنتظر الشفاء من ربى وأنا على ظهر جوادى » .

* * *

ورغم هذه النعبئة العامة التى أعلنها الغرب الذى هب على بكرة أبيه لمحاربة صلاح الدين ، فإن صلاح الدين استطاع أن يهزمهم فى موقعة « المصاف الأعظم » .

ولقد كان صلاح الدين يرتب جيوشه على أحدث طراز فى ذلك الأوان .

يضاف إلى ذلك الروح المعنوية التى كان يشعر بها الجندى العربى فى كل معركة ، وأى موقعة .

* * *

وتقابل الجيشان فى شعبان ، أكتوبر . وأدار صلاح الدين المعركة بما أعطاه الله من مهارة ، وكان تل العياضية مسرحا للقتلى والجرحى والأسرى ، وحمى الوطيس ، ولكن النتيجة كانت الانتصار العظيم لصلاح الدين ! ولقد ذكر التاريخ أن الأفرنج فقدوا فى هذه المعركة

خمسة آلاف قتيل عدا الأسرى والجرحى .

وليت الصليبيين اعتبروا بهذه الهزيمة المنكرة وأقلعوا عن مكائدهم وتركوا شرورهم .

لم يفعلوا شيئاً من هذا ، بل أخذوا يتجمعون ويتربصون الدوائر بصلاح الدين وجيش صلاح الدين .

لقد بلغهم أن جيش العروبة قد قل عدده بسبب رحيل بعض فرقه إلى بلادها وقالوا إنها الفرصة السانحة ، وأجمعوا أمرهم ، وهجموا على الجيش الصلاحى على حين غفلة ، غدرا وخيانة ، ولكن القائد المحنك لا تغلبه الخفة وهو الذى علمه الحروب ، وزادته حنكة وتجربة .

لقد قابل الجيش الأفرنجى أخوه العادل وقاوم مقاومة عنيفة ، حتى وصل صلاح الدين ، وأدار المعركة من جديد ، والمرة الثانية كانت الانتصارات عظيمة حتى قدر العلماء القتلى بعشرة آلاف . فأما ابن شداد فقد عجز عن حصر القتلى فى عدد معدود . وكانت هذه الموقعة تسمى « العادلية » .

* * *

فلئن ذكر التاريخ بعد ذلك أن صلاح الدين قد لقى من الأفرنج

مقاومة . وأنهم استطاعوا أن يأخذوا عكا بعد حصار وقتال مرير ، فقد لاقوا هم العنت الشديد ، والإرهاق العنيف . والتاريخ فى صف صلاح الدين على أى حال . فقد كان بمفرده مقاوما لدول جاوزت الثلاثين عدا . قاومها بالسلاح والجلد ، والصبر والثبات والمهارة والحذق .

فرحى ثم مرحى لصلاح الدين فى كل زمان ومكان .

الحملة الصليبية الثالثة

أسبابها

ذكرنا أن الدول الغربية كلما أرادت أن تغزو الشرق العربى المسلم اتخذت الدين حجة ، واتخذت « بيت المقدس » لها هدفا وغاية ، كما ذكرنا أن هذا الحماس للدين كان حماسا كاذبا وحججا باطلة .

على كل حال استغل الغرب كعادته دائما هذه العاطفة فى الحملة الصليبية الثالثة ، وزاد من حماس الغرب انتصارات « صلاح الدين » وانتزاعه لفلسطين .

ويؤكد التاريخ أن قواد هذه الحملة نجحوا نجاحا كبيرا فى إثارة النفوس وتجميع الصفوف ، حتى أصبح البحر الأبيض المتوسط مملوءاً بالسفن الذاهبة والآتية .

ومما زاد من حماس هذه الشعوب الغربية أن الملوك أنفسهم كانوا يتصدرون هذه الحملة . فهذا « فردريك » امبراطور الدولة الرومانية تلك الدولة التى كانت تضم ألمانيا . وإيطاليا وبلاد نهر الرين ، وهذا « ريكارد » ملك إنجلترا ، وهذا « فيلب » ملك فرنسا ، كلهم أجابوا صريخ المنادى ، والداعى إلى الغزو الاستعمارى لبلاد الشرق .

وتثبت هنا فى مرارة وأسى بالغين أن الغرب كانت فيه أحقاد

ومنازعات ، ولكنه عندما أراد الحملة على الشرق نسى هذه الأحقاد والحزازات وكأن لم يكن بين ولا بانه أى شىء . تذكر ذلك لتفيد الشعوب العربية وحكامها ونستحثها على الهمم وجمع الكلمة وتوحيد الصف وتوحيد القيادة ، مذكرين بقوله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

ومما يجدر ذكره أن هذه الحملة ، كانت فى غاية النظام والدقة ، ترمى إلى تخطيط حربى معين وانتصار حربى سريع ، فقد كبر على الغرب والغربيين أن يروا قائدا مثل « صلاح الدين » نهض بالعرب والمسلمين ، وقد كبر على الغرب أن يرى راية الاسلام قد خفقت عالية تتجاوب مع تاريخها العظيم وتتناجى مع امجادها الأولى من جديد ، وقد كبر على الغرب والغربيين أن يروا هذا الشعور الدافق بالحياة والإيمان والسيادة يدب فى أبناء الأمة العربية بقوة ونشاط . كبر عليهم ذلك فجاءوا ، ولكن « سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

عكا

شاءت الأقدار لصلاح الدين أن يعيش أيامه كلها بين ترتيب لحرب أو خوض لمعركة ، أو نصر على عدو .

ها هى التقارير تفد إليه : إن العدو الصليبى الغاشم يستعد للقتال ، وسفنه الحربية تمر سرا وتتجمع فى «وانى» إيطاليا ، وعلى ساحل فرنسا الغربى .

لم يكن أمام الصليبيين إلا عكا . . هى التى يقصدونها ، ويجمعون الجموع حولها .

وبالرغم من انتصارات صلاح الدين السابقة : فقد كان يمر بظرف عصيب .

إن جنود صلاح الدين واصلت القتال يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام ، لاتنتهى من معركة إلا لتبدأ فى أخرى ، ولا تظفر بانتصار إلا وتسعى إلى آخر .

والطاقة البشرية فى الانسان - أيا كان - محدودة .. وذلك وحده كفيل بأن يحدث بعض تفكك فى جيش صلاح الدين .

إن الفرق بين جيش صلاح الدين ، وجيوش الغرب ، أن الجيش

العربى كان يضم الشباب المقاتل فى الأمة العربية كلها ، فكانت الأمة إذا هبت هبت جميعا .. أما الجيوش الصليبية ، فكان موردها من دول كثيرة وكانت سريعة النجدات ، كثيرة التحركات .

وفرق آخر هو تفوق الغربيين عن العرب فى القوة البحرية واستغلالهم لهذا التفوق فى الناحية الحربية .

أشار إلى ذلك بطلنا الفاتح « صلاح الدين » فى رسالة كتبها إلى الخليفة فى بغداد :

« المدد الطويلة ، والكلف الثقيلة ، قد أثرت فى استطاعتهم - أى الجنود - لا فى طاعتهم ، وفى أحوالهم لا فى شجاعتهم ، فالبرك - أى المتاع - قد أمضوه ، والسلاح قد أحفوه ، والدرهم قد أفنوه - أما الصليبيون - فيمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، فإذا قتل المسلمون واحدا ، بعث البحر عوضه ألفا ، وإذا ذهب بالقتل صنف أخلف بدله صنفا »

وهذه تعبيرات من صلاح الدين الذى كان لايهمه هول ، أو لايفزعه فزع .

فإذا ما أضفنا إلى هذه العوامل ملاحظة على صلاح الدين ، هى سماحه لحاكم « صور » بهدنة لمدة ثلاثة أشهر ، تجمع فيها الأفرنج ، واتخذوها مجالا حربيا واسعا - علمنا أن الفرصة كانت الصليبية هذه المرة !!

* * *

أمر صلاح الدين بعكا أن تحصن . وأمر الجنود أن يكونوا على أهبة الاستعداد .

وفضل صلاح الدين هذه المرة أن يكون القتال عن طريق « الكمين » والعرب كانوا يتقنون هذه الخطة أكثر من غيرهم كثيرا .

وكان يشترط فى من يدرب على هذا النوع من القتال شروط معينة أشار إليها بعض المؤرخين وهى أن لا يكون بهسال ولا كثرة عطاس، ولا حشرجة بحلقه ؛ ولا لجة فى صوته ، ليس بنوام ، وليس بليد القلب ، ولا كليل الطرف ، وأن يكون ناهضا عند وقت المناداة والشـــدة ، سريع الحركة ، شديد النكاية بالعدو .

ولكن الصليبيين بالرغم من قتال الكمائن ، تحركت جيوشهم إلى عكا وعسكروا قريبا منها ، وحاصروا حامية إسلامية كانت فى الطريق إلى عكا

وأصبح الموقف هكذا :

الصليبيون يحاصرون عكا .

وصلاح الدين يحاصر الصليبيين .

ووقعت مناوشات واشتباكات ، دخل أثناءها صلاح الدين عكا بقوة السيف ، ولكنه لم يستطع أن يفك الحصار عن الحامية الإسلامية

فجمع صلاح الدين جنوده وخطب فيهم وحثهم على مواصلة القتال . « اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، وقد نزل فى بلدنا ووطن أرض

الاسلام ، ولابد من الاهتمام بقلعـــه ، فانه قد أوجب علينا ذلك »

وتحمس الجند لهذه الخطبة ، وتحركت هممهم ، واشتاقوا إلى القتال والنزال والنضال . مع أن بعضهم كان ينـــام وهو على ظهور الجياد

وزاد الحال تحسنا أن الوفود الإسلامية الحربية أصبحت ترد شيئا فشيئا .

ولكن ماذا تعمل هذه الوفود المعدودة أمام هذا الخبر المشئوم : فردريك قادم فى ثلاثمائة ألف جندى لحرب صلاح الدين .

حفر الصليبيون خندقا ، وأحكموا الحصار حول الحامية الإسلامية .

إن حصار هذه الحامية يحز فى نفس صلاح الدين . إن كل جندى من جنوده قوة جبارة ، وطاقة عظيمة فى ميدان الحرب ، ولكن ماذا يعمل والجو مكفهر ، والرعد قاصف ؟

تقابل الأسطولان : الأسطول العربى والأسطول الصليبى فى معركة حربية هائلة . . فانتصر الأسطول الصليبى ، وازداد الأسرى وساءت الظنون وبلغت القلوب الحناجر .

إن المسلمين لا يستطيعون الآن دخول عكا ، لقد حاصرها الأفرنج حصارا محكما ، وصنعوا أبراجا فى غاية الحصانة .. فما العمل وما الحيلة ؟

إن شابا عربيا مسلما من دمشق يطلب أن يقابل صلاح الدين ، وتمت المقابلة ، وعرض فكرة بسيطة على القائد العظيم .

لقد اخترع هذا الفتى المسلم أن يدخل عكا ، ويعمل على إحراق هذه الأبراج .

ودخل الفتى عكا ، وصب على البرج الأول كمية من الماء ، وظن الصليبيون أنه ماء يسقى به البرج ، ثم تبع الماء كميات من النفط المشتعل فاحترق البرج . وفى سرعة مذهلة صنع الفتى ببقية الأبراج ما صنع وبادت ، وانتصر الجيش العربى ودخل صلاح الدين .

وتبع هذا الانتصار انتصار آخر عظيم .

أتعرف ما هو ؟؟

إنه تخليص الحامية الاسلامية من براثن العدو ، ومن حصار الصليبيين .

لقد تحركت المراكب الصليبية لمقاومة الأسطول المصرى القادم لنجدة صلاح الدين ضد الصليبيين وشغلهم عن حصار الحامية ، وعاون أهل عكا أنفسهم الحامية على التخلص .

وبذلك كانت القوة الاسلامية العربية إلى آخر لحظة على أحسن حال وانضمت الحامية الاسلامية مع أخواتها من الحاميات الأخرى .

ولا يمكننى أن أقف مكتوف القلم هنا ، بالنسبة لحكومة بغداد حين ذاك .

لقد قلبت صفحات التاريخ فلم أجد لها أى موقف مشرف فى هذا الحرج كله .

وإنصافا للحق أذكر أن كل ما جادت به مكارم الخليفة العباسى بالعراق عشرون ألف دينار ، مع كميات محدودة من النفط .

وإذا تساءلنا : أين الرجال وأين الأمداد الحربية اللازمة لهذا القتال المستعر ، وأين الهمم والعزائم ، لانجد جوابا ، إلا إذا كان فى باطن التاريخ .

* * *

إن الأمداد الأوربية كانت تأتى بمئات الآلاف ، وعشرات السفن وإن ملوك انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وغيرهم كانوا يفدون إلى الحرب بأنفسهم ، وإن الأموال كانت تتدفق على الجيوش الصليبية ، وإن الترفيه كان يتبع الترفيه .

ماذا يصنع صلاح الدين أمام هذا الزحف الزاحف ، والقوات الهائلة .

وأمر آخر ، هذا سلطان المغرب يرى هذه الحركات كلها ، أوربا تهب عن بكرة أبيها ، وصلاح الدين يقاومها . ومع ذلك لايحرك ساكنا ولا يقدم معونة .

ومن المضحك أن يستنجد به صلاح الدين ، فيغضب ولا يجيب لأن صلاح الدين لم يخاطبه بأمير المؤمنين .

مآس تتبعها مآس ، وأحداث تتلوها أحداث ، وأعصاب الفتى الفاتح تحترق لهذا الخذلان المقيت . وهذا الضعف المميت .

إن الأسطول الانجليزى وصل بيروت واخترق الحدود ، وقرب من أرض المعركة .

وإن النجدة الكبيرة بقيادة فردريك وصلت .

وإن رتشارد وفليب وصلا .

وإن الحامية الاسلامية التى كانت فى عكا حوصرت من جديد واكفهر الجو ، وغيمت السحب مرة أخرى .

إن الحصار يشتد ، وإن العنف يزداد ، وإن الصليبيين يملكون زمام الموقف ساعة بعد ساعة .

واتجه ريتشارد الخائن إلى الحامية الاسلامية المرابطة بكل قواه ، وأسرها عن آخرها ، وأصبحت فى قبضته ، وكان عددهم ألفين وسبعمائة

والغريب حقا أن يمرض ريتشارد مرضا موئسا ، فيرسل إليه صلاح الدين أطباء وفاكهة ، فما شفى الخائن الغدار كان رد جميله أن أمر بذبح هؤلاء الاسرى الألفين والسبعمائة .

وتصور يا أخى حزن صلاح الدين على هؤلاء الأسرى ، حتى رووا أنه كان يقتلع شعر لحيته من شدة غضبه .

وبعد مقاومة من صلاح الدين القائد العربى الفاتح الصليبيين دامت سنتين كاملتين ، اضطر إلى التسليم وهو دامع العين ، حزين الفؤاد . .

إن صلاح الدين كان يقاوم عوامل نفسية جبارة ، وكان يقاوم قوات عاتية قهارة .

وإذا ذكرنا أن الغرب قد وصل إلى عكا ، فقد وصلها بعد هزائم دامية ، وحروب مستعرة دامت أربعة عشر عاما لم يهزم فيها صلاح الدين مرة واحدة .

ووقف صلاح الدين كالأسد الرابض على بقية حدوده العربية الاسلامية لايفرط فى شبر واحد ولايتنازل عن شىء منها .

الاهداف الظالمة

لم يكن حصار عكا والاستيلاء عليها هو المطلوب عند الصليبيين لا : إن المقصود هو احتلال فلسطين أولا .

والاستيلاء على الشام وبقية الشرق الأوسط بعد ذلك

إنها بلاد حلوة ، وجميلة ، وغنية .

وغرهم تسليم صلاح الدين عكا ، وانتصارهم الوحيد فى هذه المعركة .

وإذا فليزحفوا إلى « بيت المقدس » ليزحفوا إلى هذا الحرم الأمين ، ليستولوا عليه كما استولوا على عكا من قبل ، وليرفعوا العلم الاستعمارى على فلسطين .

وقهقه صلاح الدين لهذه النوايا الاستعمارية ، وعجب من هذه العقول « الحيوانية » عجبا شديدا .

والحق أن الجيش الصليبي هذه المرة كان منظما من الناحية العسكرية عددا وعددا ، برا وبحرا ، وكانت قيادته تستغل كل عزم وكل شدة مع الجنود ، وكانت تطمع فى الانتصار من أقرب طريق ، وبأول ضربة

قاسية . ولكن عزمة صلاح الدين وقوة الجيش العربى المسلم . وتأييد السماء ، كان فوق إعداد الصليبيين وفوق نواياهم .

وسار الجيش الصليبي حتى وصل الرملة وهى تبعد أميالا قليلة عن يافا ، وبذلك قرب الصليبيون من بيت المقدس .

وعلم صلاح الدين بالخبر ، فوصل فى قواته إلى القدس . عازما عازما ، على الموت أو النصر ، ولا ثالث بينهما .

ويتولى هنا الرحالة عبد اللطيف البغدادى فى كتابه الافادة والاعتبار وصف ما شاهده من أعمال صلاح الدين بعد نزول القدس فى هذه اللحظات الحاسمات ، يقول :

« فرأيت ملكا عظيما ، يملأ العين روعة ، والقلوب محبة ، مهتما فى بناء سور القدس ، وحفر خندقه ، يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الأحجار على عاتقه ، وتأسى به جميع الناس والفقهاء والأغنياء والأقوياء والضعفاء .

وبعد هذا التحصين جمع الجنود والأمراء ، وبث فيهم من الروح المعنوية ماهو جدير به فى كل مواقفه .

وكان مما جاء فى خطبته هذا اليوم :

« اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم ومناعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة فى ذمتكم ، وأن هذا العدو ليس له من يلقاه إلا أنتم ، والمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم » .

وفعلت هذه الكلمات فعل السحر فى القلوب ، وأثرت فيهم تأثيرا بالغا .

وهنا رأى رتشارد وجنوده الصليبيون استحالة هزيمة صلاح الدين.

رأو الشرر يتطاير من كل جندى عربى ، رأوا صلاح الدين ، تقف كل شعرة فى جسده ، استعداد للكفاح وطلبا للاستشهاد .

رأوا دماء الاسلام والعروبة تغلى فى العروق .

وأعلن ريتشارد نصريحه المشهور :

« هذه مدينه لايمكن فتحها وصلاح الدين حى ، وكلة المسلمين مجتمعة » .

* * *

ماأعظم هذا الوسام الكبير ياصلاح الدين ، يأتيك من قائد القوات الصليبية ، وما أجدرك به أيها الفتى العربى الكبير .

وارتدت الجيوش الصليبية عن بيت المقدس خاسئة مدحورة .

وبقى العلم الاسلامى العربى مرتفعا على أرض فلسطين .

طواف

من حق الرعية على صلاح الدين أن يروه ويتمتعوا بطلعته البهية .

لقد سمعوا بانتصاراته الخارقة للعادة ، ولقد جاءتهم أنباء سحقه الصليبيين مرة بعد مرة .

واستجاب صلاح الدين لهذه الأمنية .

خرج من القدس بعد هذه الهدنة العامة بين المسلمين والصليبيين .

وذهب إلى رعيته ليسأل عن أحوالهم ، ويتفقد شؤونهم ، وليستريح من ميدان الجهاد الذى استولى على فكره وجسمه سنين طوالا .

ووصل إلى دمشق ، وخرجت البلاد عن بكرة أبيها تستقبل هذا البطل الظافر ، وذلكم الفاتح المنتصر .

لقد تعانق الشعب مع البطل ، وجدد له البيعة ، وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير .

وحق للشعب العربى أن يفرح بقائده ، وحق للقائد أن يعانق شعبه .

وطاف صلاح الدين ببلاد الشام واطمأن على أحوال أهلها ، وكان فى نيته أن يكمل طوافه بزيارة مصر وشعبها ، وبالحج إلى بيت الله الحرام .. لولا أن المنية عاجلته بعد أن قضى على الحملة الصليبية وأهدافها . ووضعها فى دائرة ضيقة .

وعرجت نفسه المطمئنة ، إلى ربها راضية مرضية ، فعاشت مع الخالدين ، وعانقت أمثالها من الأبطال الماجدين .

خاتمة

كل حين وحين تجود الأقدار على الأمم بعظيم يحيى موتاها ، ويجدد نشاطها ، ويبعث يقظتها .. سنة الله فى كونه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وأمتنا العربية جرت عليها هذه السنة الأزلية فى خصوبة وموالاة ، حتى أثمرت وأنبتت من كل زوج بهيج .

وكان صلاح الدين أحد هؤلاء العظماء الذين جددوا وأيقظوا ، وعمروا وأحسنوا ، فجاءته الزعامة ، منقادة تجر إليه أذيالها ،

واستقبلها صلاح الدين على حذر وفى وجل .. لم يندفع فى استقبالها لأنه كان يعلم ما وراءها من عبء ، وما يتبعها من مسئوليات .

ولكنه كان لا يفرط فيها ، لأنه كان أقدر من غيره على امتصاص ما فيها من خير ، ونبذ ما فيها من شر .

هو فى القتال القائد المبارز ، والجندى المدافع ، والساهر الكفء والمدبر فى حزم ، وهو فى أعمال التحصين الحامل التراب على كتفه ، الحادى مع الحادين فى سهولة وبساطة ، حتى إذا انتهى القتال وانتهى التحصين ، فهو المتواضع السمح الذى كأنه لم يشترك فى معركة ، وكأنه لم ينتصر خمسة عشر عاما انتصارات متوالية .

ولهذا نطق بحق .. أنه كان زعيما شعبيا صادقا ، أحبه الشعب عن إخلاص ، وعانقه فى قوة .

حتى إنه وقت ان كان ضابطا صغيرا فى إحدى الحاميات السورية التى ناصرت الشقيقة العربية مصر .. توجه إلى الاسكندرية للدفاع عنها لجاء العدو وطلب من الأهالى أن يسلموه « صلاح الدين » ويغدق عليهم ما يشاءون من مال وما يشاءون من متاع ، ولكن الشعب السكندرى رفض هذه العروض كلها ، وقرر أن يدافع عن صلاح الدين إلى آخر قطرة من دمائه .

لقد كان صلاح الدين مجموعة من السجايا الحميدة ، وأمة من الفضائل ، لم تؤرخ فيه شخصه ؛ إنما أرخنا عظمته ومجد العروبة والإسلام فيه .

لقد كان للرعية أبا رحيما ، ووالدا إنسانا ، وحاكما حكيما ، شديدا فى الحق ، صلبا على الأفرنج ، كان على مصالح العرب ساهرا . وفى الجهاد فى سبيل الله مثابرا ، لايقعده عن ذلك مرض ، ولايلهيه عنه أهل ولاولد

قال فيه صاحب كتاب طبقات الشافعية : « ملك البلاد ، ودانت له العباد ، وأحبه الخلق ، ونصر الاسلام ، وهزم الأفرنج ، وكسرهم مرات وفتح المدن الكبرى ، وأقام فى السلطنة أربعا وعشرين سنة ، يجاهد فى الله بنفسه وماله ؛ وكان عظيما شجاعا مهيبا عادلا ، يملأ العيون روعة والقلوب محبة ، قريبا بعيدا ، عابدا قانتا لله ، لاتأخذه لومة لائم ، مجلسه يجمع الفضلاء والفقراء ، وأصحابه كأنهم على قلب رجل واحد محبة فيه واعتقادا وطواعية » .

ولئن كانت الأمة العربية حفلت بعظمائها الكثيرين فإن صلاح الدين جدير بأن يكون عظيم العظماء وبطل الأبطال .

لم يكن حريصا على الصالح العام لبلاد العروبة ، ولم يكن محبا للأخلاق الفاضلة فى حياته فحسب ؛ بل كان يود أن يسلك من يخلفه مسلكه ، وأن ينهج نهجه . هذا هو فيض أخلاقه يتدفق فى وصية لابنه « الظاهر » حين أرسله لولايته :

« أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الخير كله ، وآمرك بما أمر الله به ، فإنه سبب نجاتك ، واحذر من الدماء والدخول فيها والتقلد بها ، فإن الدم لاينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فيهم فأنت أميني وأمين الله عليهم ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لايبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، وما بينك وبين الله يغفره لك بتوبتك إليه فإنه كريم » .

وأعظم ما فى صلاح الدين بعد ذلك كله ، أنه أحدث وعيا شعبيا عظيما فى كل فرد من الأمة العربية .

لقد كان الفرد العربى قبل صلاح الدين مشتت البال ، ضعيف الشخصية ، يائسا بائسا ؛ فلما جاء هذا البطل جدد الشباب ، وأعاد إلى العربى ثقته ، وملأه آمالا وروعة ، وأوجد من الأمة المتفككة الأوصال ، دولة متحدة ، وجبهة تناطح السحاب ، وتغالب القوى الجبارة الضخمة ؛ قوى الغرب كله ، المغرور بقوته ، الماكر فى حيله ، الثعلبان فى دهائه .

ما أشبه العربى اليوم فى شموخه وشعوره بعزته وسيادته ، بالعربى فى أيام صلاح الدين ، وما أشبه تجمع الغرب علينا اليوم بتجمعه أيام صلاح الدين ، وما أشبه احتلال اليهود لفلسطين اليوم باحتلال الفرنج

الغزاة لها أيام صلاح الدين ، ولكن هذا البطل حمل على الفرنج فبدد جموعهم ، ومزق صفوفهم ، واستطاع أن يجعل البيت المقدس عربيا كما كان عربيا ، وأن يرد فلسطين كلها إلى العرب أجمعين .

شهد له الأعداء قبل الأصدقاء ، فقد جاء فى كتاب تاريخ المؤرخين ماترجمته « والذى أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته ، وسخاؤه وكرمه ورحمته ، وحلمه وصفحه وعفوه .

لاسيما محافظته على العهود والمواثيق ؛ ومن المدهش أن تكون هذه الأوصاف التى ملأت قلوب أهل أوربا إعجابا هى الأوصاف التى يصفون بها ذلك الرجل الذى انتصر عليهم فهزمهم فى آسيا »

ذلك هو صلاح الدين الذى انتقل إلى رحمة ربه عام ٥٨٩ هـ ١١٩٣ م .

لقد رسم لنفسه أن يكون عظيما ، وأرادت له الأقدار أن يكون عظيما ، فعاش عظيما ، ومات عظيما .

ولكن العظمة فى صلاح الدين كانت من لون جديد ! فلم يحاول أن يفرض نفسه على التاريخ ، ولم يحاول أن يكون عظيما بالقهر والجبروت ، ولم يحاول أن يكون عظيما فى ناحية ماتاركا بقية النواحى تحتاج إلى الكمال والبناء .

لم تكن عظمته شيئاً من ذلك كله ، بل كانت أسمى من هذا كله .
لقد كانت مزاياه فى سعة قلبه ، وفيض حنانه . وإشراق روحه ،

وصلابة عزمه ، وحسن معاملته ، وكبير تواضعه .

أنظر ، صلاح الدين الفاتح لفلسطين كلها فى مدى شهرين بقلاعها وحصونها وتلالها ، ولا ندرى كيف استلها من الغزاة الأفرنج وكيف تغلب عليهم وقهرهم ، هذا البطل الفاتح الكبير يسمع نساء يبكين أزواجهن وأولادهن .. فيبكى معهن ويشهق ، لقد كان هؤلاء النسوة من نساء الأعداء ؛ ولكن الرحمة حينما تنفذ إلى القلب لاتعرف فى قاموسها قريبا ولا بعيدا ، إنها تتسع حتى تعم الإنسانية كلها : ولم يرض صلاح الدين لنفسه فى هذا المقام أن يبكى فقط ، بل أسرع بالأمر إلى هؤلاء الأزواج والأولاد أن يتبعوا نساءهم وأمهاتهم ، وكانت هذه الدموع سببا فى إطلاق مايزيد على المئات من الأسرى الأفرنج .

إن صلاح الدين بكى قبل أن يفرح ، فقد كان بكاؤه عقب المعركة . ذلك لأنه كان لايرى الفرحة بالنصر فى أقواس وأعلام ، إنما كان يرى الفرح الأكبر فى سجدة شكر لله ، يعبر فيها عن سره ونجواه ، ومن الفرحة بالنصر أن يبكى للأسرى ، ويعطف على المساكين .

وانظر إليه يوم أن وجع إلى الشام فوجد قصرا عظيماقد شيد ليزل فيه ، فنظر إليه وابتسم ثم قال : هذه القصور لغيرنا ، إنما نحن أخذنا على عيشة الجهاد والكفاح .

إن الشهوات والمطامع لم تجد فى قلبه فراغا لتعيش فيه . فقد كان قلبه

زاخرا بالمعانى الحية ، والمعانى والأهواء ، لاتجتمع فى قلب إنسان كصلاح الدين .

إن القصور تحتاج إلى البذخ والترف ، وتركن إليها النفس فتكسل عن الواجب ، وتتأى عن سواد الناس . وطبيعة صلاح الدين أنفت على البرانج الحربية دائما ، وسياسة الكر والفر من غير ملل ولاعناء .

واظر إليه يوم أن أراد إعلان زوال الخلافة الفاطمية فى مصر .

لقد تردد جمعة بعد جمعة محافظة على المعنى الإنسانى ، فلما أعلنها ، وصادف أن توفى الخليفة الفاطمى بعد ذلك بقليل ، قال : لو كنت أعلم أنه يموت لأخرت إعلان زوال خلافته ؛ وعقب على ذلك أحد جلسائه متفكها :

ولو لم تعلن زوالها لمامات ! !

وذلك يدلنا على أن خلة التشيع لم تعرف طريقها إلى قلب صلاح الدين .

• • •

ولقد كان عنصر التدين فى صلاح الدين عميقا إلى حد كبير ، حتى لقد بلغ به إلى أنه أخذ على نفسه أن تكون تحركات جيشه فى أيام الجمع وعقب الصلوات ، ولقد كانت هذه التحركات مباركة عليه فعلا ؛ فقد

حدث أنه استولى على ست قلاع من أحسن القلاع فى ست جمع متوالية :

(١) جعبية	يوم الجمعة	١٨	جمادى الأولى	٥٨٤ هـ
(٢) اللاذقية	»	٢٥	»	»
(٣) صهيون	»	٢	جمادى الآخرة	»
(٤) بكاس	»	٩	»	»
(٥) الشغر	»	١٦	»	»
(٦) برمانية	»	٢٧	»	»

وكان من أمانيه الدينية تكوين جبهة إسلامية متحدة ، وفى سبيل ذلك عقد الحلف الإسلامى ، واجتمع بسفراء البلاد الإسلامية وأمراء الفرق جميعا .

وشاء الله عز وجل أن يكون صلاح الدين أميراطور هذه الجبهة من مصرها إلى سودانها ، إلى شامها وفلسطينها ، حتى كتب لأخيه يطمئنه على سلامة الأمور فى هذه البلاد وإذعانها لصلاح الدين فقال له : « لاتجد فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما » .

• • •

أيها العربي : اعمل في صمت ، وأمل في إشراق . وانتظر الوثبة القدرية ، وأعد نفسك واخلق منها صلاح الدين . اجعله أسوتك ، وكن كبيرا في قلبك وفي آمالك . وحاول أن تكون صلب العود ، حتى إذا أراد المستعمر أن يصدك عن طريقك وجد عزمك قويا ، وإرادتك حديدية ، ووجدك كالأسد تحول ولا تخاف ، ووجدك مؤمنا بحقوقك مقدما نفسك وما تملك فداء لدينك وعروبتك ومبادئك .. تكون صلاح الدين .

إلى الوحدة الكبرى يا فتيان العرب

وفي يوم من أيام التاريخ البعيد . انطلقت خطوات آبائنا في موكب الفتح من قلب الجزيرة العربية إلى فلسطين إلى مصر ، إلى برقة ، إلى القيروان وفاس ، إلى مرسى الموج من شاطىء الأطلسي إلى قرطبة وأشبيلية ولشبونة وإلى ليون من أرض فرنسا .

ثم لم يعد أحد منهم إلى الجزيرة ، لأنهم لم يشعروا قط بالغربة في بلد نزلوه ، ولم يشعر أهل بلد نزلوه بأنهم غرباء بينهم ، وصار شاطىء الأطلسي من يومئذ هو الحد الغربي للوطن العربي الكبير .

وفي اليوم نفسه من ذلك التاريخ البعيد ، انتظمت خطى طائفة أخرى من آبائنا في موكب آخر من مواكب الفتح من قلب الجزيرة العربية إلى دمشق ، وإلى حمص وحلب ، إلى الفرات ودجلة ، إلى الموصل وما وراء النهر .

ثم لم يعد بعد واحد منهم كذلك إلى الجزيرة ، ولم يشعر بغربة . وصارت جبال الموصل من يومئذ حدا آخر من حدود الوطن العربي الكبير .

ورفرفت الراية العربية على وطن العرب الكبير ، الممتد من بحر الهند إلى بحر الروم ! ومن جبال أطلس إلى جبال الموصل .

ولم تزل ترفرف بين هذه الحدود الأربعة منذ ثلاثة عشر قرنا ونيف

إلى اليوم وإلى الغد وإلى يوم يبعث الله الموتى من كسرى وقيصر وفندريق وشارل ، ليشهدوا بما علموا .

وفى يوم آخر قريب من ذلك التاريخ انتظمت خطى موكب آخر من مواكب التعمير يضم أفواجا من بنى هلال وبنى سليم ، وبنى مر ، وقبائل أخرى من عدنان وقحطان ؛ فتفرقوا بين حدود الوطن الأربعة ، يبنون الخراب ، ويصلون النسب ، ويتلون آيات الكتاب .

فلهم فى كل بلد بناء ، ومنهم فى كل أسرة عم وخال ؛ وفى أفواههم على كل مئذنة دعاء ، وباسمهم فى كل حين صلاة وتسبيح .

ولما هجرت سفن العرب عباب البحر إلى صقلية وجنوب إيطاليا لتنسخ بالحضارة العربية وثنية الرومان ، كان على ظهر السفائن مغاربة ملثمون من طوارق البادية ، ومشارقة معممون من أهل أنطاكية ويمنيون مرهفو القدود ، من جنوب الجزيرة ، ومصريون سمر الوجوه من أهل وادى النيل ؛ وكلهم تحت الراية عرب ، لأن العربية لسانهم ، وكلهم مسلمون لأن محمدا صلى الله عليه وسلم نبيهم .

ولما انحسرت موجه الإسلام عن الأندلس بعد أن أوهن أهلها شرق الكلمة ؛ وهاجر من هاجر منهم إلى مصر وشمالى أفريقية ؛ كان هؤلاء المهاجرون جميعا فى اصطلاح أهل التاريخ وأهل السياسة عربا ؛ لأنهم مسلمون ، وفيهم الأسبانى الأصل ، من بنى مردنيش ؛ ومنهم القوطى النسب من أبناء لذريق .

ولما انقضت أوربا الصليبية انتفاضة البغضاء على العرب فى القرن

الخامس الهجرى وما بعده ، زحفت جموع الصليبيين فى وقت معا على غرناطة فى الأندلس ، وعلى أنطاكية فى الشام ، وعلى دمياط فى مصر ، وعلى قرطاجنة فى تونس ؛ لأنها جميعا فى اعتبار الصليبية بلاد عربية .

على :

لقد صدقوا : إنها جميعا بلادنا .. نحن جزء منها ، وهى جزء منا .

فليغضب اليوم من يغضب من ساستهم وكبرائهم حين نقولها : فقد قالوها قبل أن نقولها .

قالتها سيوفهم فى الحرب ، وقالتها سفائنهم فى البحر ، وقالتها طائراتهم فى الجو ، وقالها سفراؤهم ووزراؤهم فى المؤتمرات والمعاهدات وخطب البرلمانات ، وقالها علماؤهم وكتابهم فى بطون الكتب وفى الصحف والمجلات ، وقالها ممثلوهم على مسارح الجد والفكاهة .

فلماذا يغضبون حين نقول نحن فى مصر كما يقول كل عربى فى بلده : إن شمال أفريقيا جزء منا ونحن جزء منه .

فليعرف من شاء ومن لم يشأ : أن كل بلاد تنطق العربية بلادنا ، ولابد أن تتحرر بلادنا .

وليعرف من شاء ومن لم يشأ ، أن المسلمين فى شتى بقاع الأرض إخوة ولابد أن يتعاونوا الإخوة فى البأساء والشدة .

وقد عاش ساسة أوربا زمانا يرددون قول الشاعر الانجليزى :

واليوم قد آن لنا أن نقول مثل قولهم « نحن الشرق بإزاء مطامع الغرب أمة واحدة »

تلك هى الدعامات التى تقوم عليها سياستنا ، لانريد بها عصبية دين ، ولاعصبية جنس ، ولاعصبية أرض ، لأن ديننا دين الإنسانية كلها ، لادين جنس من البشر ، ولأن جنسنا هو أول من بشر بمعانى السلام والأخوة الإنسانية على الأرض ، فلا يستجيب لدعوة العنصرية ، ولأن أرضنا هى أرض النبوات ، فلايمكن أن تنبعث منها دعوة إلى شر .

وإنما نريد نحن العرب ونحن المسلمين ونحن أهل هذا الشرق ، أن نكون كتلة واحدة ، تؤيد الحق ، والخير ، والسلام ، وتقاوم مذاهب البغى والعدوان والدمار .

إلى ذلك يدعونا ديننا ومواريثنا العقلية والخلقية ، وإيماننا بالحرية والكرامة ، وبكل القيم الإنسانية الرفيعة .

فليؤمن بهذه الحقائق من شاء أن يؤمن من كبار الساسة وصغارهم فى العالم الآخر ، قبل أن تكتسحهم الموجة الطاغية المدمرة فيقولوا ولات حين مندم : ليتنا اتخذنا من المسلمين عضدا .

أيها الفتى العربى الكريم :

هذا هو تصريح رئيس الجمهورية العربية المتحدة الجريدة « القبس أوف أنديا » .

ولقد تحقق ما لم يكن فى الحسبان . . لقد عادت إلى الأمة العربية وحدتها ، ونهضتها .

لقد استيقظ العملاق بعد أن غفا طويلا ، واستقر الكوكب العربى فى فلكه الأصيل .

لقد عرف كل عربى أن الوحدة التى وصلنا إليها ، نابتة من صميم بيئتنا ، ومن عميق فطرتنا .

قوة العقيدة ، وقوة التوحيد ، وقوة الإسلام ، وعنصر العروبة الأصيل ، هى العوامل التى جمعت بيننا ، ولن تجد وشائج أقوى من هذه الوشائج .

أيها الفتى العربى الحر :

اجعل قلبك الحى النابض هو القاعدة الحربية المركزة ، لتوجه منها سهامك الفاتكة ، وقذائفك القاتلة ، لكل من يريد الاعتداء على عروبتك ، وعلى عقيدتك ، وعلى حريتك وكرامتك ، وعلى مبادئك وعزتك .

ولتعلم يا أخى العربى أنك أنت الهدف الذى تصوب إليه المدافع وتنصب عليه القنابل ، وتحاك له الدسائس .

فالصهيونية الخبيثة ، والإباحية الغربية ، والوجودية الضالة ، والإلحادية الاستعمارية ، هذه العوامل الهدامة كلها تحاول جادة وفى غير هوادة أن تقضى على عروبتك الخالدة الباقية ، وأن تميت فيك عناصر

الرجولة الحقة ، وتسل منك كل مقومات السيادة ، لتعيش طول حياتك إنسانا ذليلا مستعبدا : تائها فى بحار الجهالة وظلمات الغواية ؛ فهل ترضى يا أخى العربى ؟

• • •

تحت راية الإسلام وفى ظل هذه العقيدة القوية الناصعة توحدت البلاد العربية كلها فى عهد الدولة الأموية وفى عهد الدولة العباسية وفى عهد صلاح الدين الأيوبى .

لقد كانت أمة موحدة فى سياستها وأهدافها وكان العربى إذا حل بأرض غير أرضه التى نبت فيها لايحس بغربة ولا يشعر بوحشة وكأنه لم يفارق بلده ووطنه .

لم يكن العربى يعرف جوازات سفر ولا استئذان حكومات ولا الرجوع إلى السفارات فى تلكم الأيام . كان الأردنى يذهب إلى الجزيرة العربية كما كان يذهب العربى فى مصر إلى العراق على أى دابة وفى أى سفينة حرا طليقا لايجد معارضة ولايجد عنتا أو مشقة .

وكان الحال كذلك فى ظل الدولة العثمانية حينا من الزمن . وبالرغم من أن فتيان العرب هم الذين أقاموا هذه الدولة بجد سيوفهم وعظيم تضحياتهم وقوة عزائمهم ، إلا أن هذه الدولة العثمانية لم تكن وفية لهذا الاخلاص وذلك الشعور ، فهدت للاستعمار وفتحت له أبوابه ، وأشاعت القلق والاضطراب ونغالت فى المناداة بالعنصرية البغيضة ، فالجنس التركى أرفع الأجناس ،

والأمة التركية هم السادة ، وما عداها من البشر فهم عبيد أو فلاحون .

وإلى ذلك كله نهبت الآثار العربية الهامة ، وسلبت الكنوز وتركت البلاد قاعا صفصفا ، وخرابا يبابا . وأصبحت البلاد العربية كالمدينة التى لاسور لها ولاحارس يحرسها ولا كلمة تجمعها ، وحينئذ وجد الاستعمار الفرصة سانحة كل السنوح لأن ينشب أظفاره ويقضم بأنيابه هذه المنطقة كلها ، وهذه البلاد المستضعفة ، وتلكم الشعوب الممزقة .

قسم الشام إلى أربعة دول . سوريا . ولبنان ، وفلسطين ، وشرق الأردن ، وشطر وادى النيل شطرين . مصر والسودان . وإذا ما اتجهنا بأنظارنا إلى شبه الجزيرة العربية هذه البلاد التى طلعت منها شمس الإسلام وذخرت بعناصر القوة . هذه البلاد نفسها دخلها الاستعمار الغشوم . والآن نجد هناك مملكة عربية سعودية ونجد حكاما فى اليمن وحكاما فى الكويت ، ونجد إلى ذلك محميات لاحصر لها ولاعد . والطامة الكبرى أن القطر السودانى نفسه فيه شمال وفيه جنوب . والسودانى يجد صعوبة أى صعوبة إذا أراد أن يتصل بأخيه السودانى من القسم الآخر .

فعلت بريطانيا هذا ودبرته وأحكمته بعد أن عقدت معاهدة سرية مع فرنسا هى معاهدة سكس بيكو فى سنة ١٩١٦ حيث اتفقا على توزيع نفوذهما فى هذه المنطقة وذلك بعد الحرب العالمية الأولى .

ولم تكتف الدول الغربية بهذا التقسيم وذلك التجزىء ، بل أحدثت

، مأساة فلسطين ، حيث أخرجت أصحابها العرب الأصليين بقوة السلاح وقصف المدافع .

• • •

تلك هي دسائس الاستعمار وأساليبه فى تفريقنا ، وتلك هى مؤامراته ضد وحدتنا فهل نكث وهل نلين . إن الغرب وحد نفسه ، فهناك الولايات الأمريكية المتحدة وهناك دول الكومنولث البريطانى فلماذا لا تتحد نحن العرب ونحن الذين اتحدنا فى الجنس واللغة والدين وتجاورنا فى الأرض وتآزرنا فى الكفاح الطويل وتقاربنا فيما يحيط بنا من عوامل جغرافية وأقليمية وجمعتنا آلام وآمال .

إن أرواح الشهداء وصيحات المجاهدين الأبرار وأنين المشردين من أبناء فلسطين ليدفعنا دفعا إلى الأمام حتى نستعيد مجد العرب وقوة العرب وكرامة الإسلام .

إن أمتنا العربية لعبت أدوارا هامة فى التاريخ وحملت مشاعل النور للانسانية طويلا .

إنها تحتل قلب الدنيا وتقبض بيدها على شرايين المواصلات العالمية وتمتلك أضخم الثروات الطبيعية وأذكى الكنوز الروحية وأنقى العناصر البشرية وهى بعد تمثل وحدة فكرية ووحدة عنصرية . ووحدة ثقافية وتواجه أخطارا واستعمارا وعدوانا متحدا ومتشابها .

فإن البقعة العربية توافرت فيها أكثر من أى بقعة فى العالم مقومات

الوحدة الطبيعية التى تفرضها الأحداث والمصالح المشتركة كما تفرضها العاطفة والتاريخ الموحد .

لقد آن لهذه الأمة أن تحد لتنفض عن نفسها كابوس الاستعمار المدمر . آن لها أن تحد لتتخذ مكانتها الطبيعية القيادية بين القيادات العالمية .

أيها الفتيان العرب :

إن الأمة التى كونها الإسلام لها مهمة إنسانية نبيلة هى أن توحد نفسها أولا ثم تدعو إلى الأخوة العالمية ضد عواطف الشر وملاحم الفتن

بهذه الأخوة يحمى الإسلام نفسه وأمته ويحمى أبناءه وأولياءه ، فى حرص على السلام والحب والوئام .

يا أبناء الإسلام ، ويا أبناء العروبة :

تحت راية الإسلام حقق صلاح الدين المعجزة ، وتحت راية العروبة الصادقة طرد المستعمر من البلاد ونحن اليوم نصحو نفس الصحوة ، ونتيقظ نفس اليقظة ، ونقوم بنفس الدور .

إن الغرب يتجمع لخنق أنفاسنا وكتم حرياتنا ، وبعبارة أدق إنه يحارب سيادة الإسلام على هذه الأرض ، لأنه يعلم أن الإسلام حارب كسرى وقيصر وانتصر ، ولأنه يعلم أن « عبد الرحمن الناصر » استطاع باسم الاسلام أن يحارب فرنسا ويتوغل فى بلادها حتى أوشك أن يدخل

باريس عن طريق أسبانيا ، ولأنه يعلم أن المسلمين هزموا التتار هزيمة منكرة ، وهزموا لويس التاسع وأسروه فى أيديهم ، ولأنه يعلم أن الأمة العربية كانت ذات مجد وقوة وبأس وسطوة لاتحب أن تستعمر ولا ترضى أن تستعمَر ، لاتبالى بالحديد والنار ، ولا تعرف الهزيمة ولا العار .

دستورها قرر ، أن من مات دون عرضه فهو شهيد ، ومن مات دون ماله فهو شهيد ، ومن مات دون وطنه فهو شهيد ،

وكتابها حارب الضعف والاستكانة وقاوم الخنوع والذلة ، إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ،

ودينها قرر ، أن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة ،

ونبيها كان إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقى الشجعان به ولاذ الأبطال فى جنابه .

كل ذلك عرفه الاستعمار الغاشم عن ديننا فحاول أن يحطمه ، وعن أمتنا العربية العزيزة فحاول أن يذلها .

• • •

كلنا يعلم المأساة الدامية التى تشرد بسببها مليون عربى واستولى اليهود على ممتلكاتهم وأراضيهم ، وأقاموا هناك الدولة الظالمة الغاشمة ، وفى تعبيرنا

باسم الدولة تجوز كبير فما هى فى الحقيقة إلا مجموعة من العصابات تجمعت على حين غفلة من العرب واستوطنت هذا البلد الحبيب ، وناكم الأرض المقدسة ، حتى إذا ماهبت الأمة العربية فى سنة ١٩٤٨ لتحارب هذا الغزو الاستعمارى ولتقاوم التهويد فى هذه المنطقة من الوطن العربى . تحركت مؤامرات الغرب ودسائسه دفاعا عن ربيبته اللقيطة وفرض الهدنة فرضا وأقام « إسرائيل » بين خطوط وهمية وفى دائرة استعمارية بحتة لا سند لها من حقيقة ، ولا أصل لها من واقع .

وليت هذه الصهيونية البشعة رضيت بهذه البقعة فقط ، بل هى تزحف الآن زحفا ، وتندفع اندفاعا تريد أن تكتسح ما حولها من الأراضى المجاورة .. ولو دخلت برلمان إسرائيل لوجدت هناك ياأخى هذه العبارة مكتوبة بخط واضح « وطن إسرائيل من النيل إلى الفرات » ، وقد عبر عن هذه الآمال العراض ، رؤساء هذه الدولة .

لقد قال بن جوريون يوما :

ليست هذه هى نهاية كفاحنا ، بل اننا اليوم قد بدأنا ، وعلينا أن نحقق قيام الدولة التى جاهدنا فى سبيلها - من النيل إلى الفرات - ويخاطب بعض زعمائهم طلاب الجامعة العبرية والمعاهد العالية قائلين لهم أن خريطة فلسطين الحالية ليست غايتهم .. إنما هناك خرائط أخرى فى المستقبل .

إن الأمبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من النيل إلى الفرات .

فإذا ماجلنا جولة أخرى مع الشعب العربى فى الجزائر ، أمسكنا بقلوبنا . وعقدنا العزم الصادق على تخليصه وتحريره ، هل تعلم ياأخى العربى أن الأمة الفرنسية المتوحشة تفتك باخوانك الجزائريين فتكا ذريعا ، لايقتنعون بموت العشرات والمئات ، بل لايبالون بذبح الألوف تلو الألوف وكم كنت أحب أن أذكر لك الكثير والكثير عن أبشع جرائم وقعت فوق هذه الأرض ، فبين يدى كتاب عن الجزائر الثائرة تأليف كوليت وفرنسيس جانسون من ماتى صفحة تقريبا كلها فى ذكر هذه الجرائم ، ولكن أكتفى بذكر آخر خبر وصلنا وهو أن فرنسا قررت أن تطلق اسم « منطقة الموت على بقعة فى أرض الجزائر تشمل مائتين وخمسين ألفا .

وهل مر عليك الغزو البريطانى لعمان فى عام ١٩٥٧ م تحت سمع أمريكا وبعدها ، وتحت سمع مدنيتهم الغربية المتحضرة .

كل هذه الأوطان ياأخى محتاجة إلى التحرير . . .

فلنعقد العزم على أن نحررها ، باسم العقيدة الدينية القوية ، وباسم الإسلام الخالص ، وباسم التاريخ العريض العظيم ، وباسم التراث الروحى الخالد . .

إننا إن فعلنا ذلك ، أرضينا ربنا ، وأرضينا نبينا ، وأرضينا خيرنا ، وأرضينا عظماءنا الأولين ، وأرضينا صلاح الدين . . .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

فهرس

صفحة	الموضوع
٣	صورة صلاح الدين
٥	الإهداء
٧	كلمة الافتتاح
١٣	الفتوة
	صلاح الدين الأيوبى
٢٩	تمهيد
٣٦	ضوء
٣٩	[illegible] عكرة
٤٣	تاريخ
٤٨	رجل الساعة
٥٥	السياسة الداخلية
٦١	القلعة الحصينة
٦٥	مكيدتان
٧٠	فتنة
٧٤	صد العدوان عن مكة والمدينة
٧٧	الخطوة التالية
	الشام
٨١	أقدار
٨٦	تطورات
٨٩	ابتهاج
٩٢	مخاضة الأحزان

صفحة	الموضوع
٩٤	حلب
١٠٢	المعاهدة المشئومة
١٠٧	نجاة
١١١	زواج
١١٣	دمشق عاصمة الإسلام
١١٧	الحروب الصليبية
	فلسطين
١٢٦	القدس
١٣٠	اجتماع الكواكب
١٣٢	قبل المعركة
١٣٧	موقعة حطين
١٤٣	فتح بيت المقدس
١٥٣	صدى الانتصارات
	الحملة الصليبية الثالثة
١٥٨	أسبابها
١٦٠	عكا
١٦٨	الأهداف الغالية
١٧١	طواف
١٧٣	خاتمة
١٨١	إلى الوحدة الكبرى